كمال عبود

حكايا

جدو «أبو حيدر»



حكايا جدّو "أبو حيدر"

- الكتاب : حكايا جدّو «أبو حيدر»

- الكاتب : كمال إبراهيم عبود

- الطبعة الأولى : 2021



دار العوام

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق – سورية

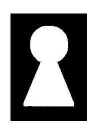
هاتف : 5615696 11 963+

جوال 933760571 963+

Samihalawam51@gmail.com

كمال إبراهيم عبود

حكايا جدّو "أبو حيدر"



الخابية

أشياؤنا الثمينة في الأعماق..

أشياؤنا الغالية.. هناك في الحاضر اللامرئي..

أشياؤنا تلك في العمق الجميل.. في الوجدان ونبضة القلب..

هي نحن.. ونحن هي..

هي بنياننا الفوقي وسقفنا الجميل.. يقول الماديون

ويقول الصوفي: هي جوهرنا المتأصل فينا منذ الذروة الأولى حيث لم يكن ثمّة وجود..

وهي نظرتنا لصفاء النفوس وغورها.. هي في الأعماق..

في صباحٍ شتوي عند السادسة صباحاً، في شارع النصر كنت أنتظر سيارة الزيل العسكرية التي تقلنا إلى الوحدة العسكرية التي كنت أؤدي بها الخدمة الإلزامية، هناك عند بائع- السحلب - وقفت قرب شاب يحتسي الشراب الساخن اللذيذ مع كعك دمشق المشهور، أخذت كأساً ووضعته على حافة عربة البائع وصرت أفرك يديّ وأضعهما في جيوبي..

قال الشاب مبتسماً: بردان كتير؟..

قلت: البرد قارس، ملعون..

وصعدنا في نفس الشاحنة، كان هو أيضاً ذاهباً إلى نفس الوحدة العسكرية لكن في سرية أخرى، وتعارفنا بالأسماء فقط.. والتقينا بعد شهر في نفس المكان وكان الثلج يوشّح المنازل والأشجار وقلت له:

ما أبدعه من منظر، لم أرَ هذا الجمال من قبل، قرب البحر لا يهطل الثلج..

وعرفت أنّ قريته تنعم بهذا الكساء الأبيض الجميل أشهراً عديدة، وعرف هو اسم قريتي، وتتالت لقاءاتنا إلى أن جاء يوماً سألني فيه عن اسم والدي؟..

والمفاجأة أنّه جاءني في يومٍ آخر إلى خيمتي ليشرب الشاي وقال لي:

اسم جدّك يونس أبو نديم؟ وجدتّك زهرة؟ وأعمامك هم فلان وفلان؟. وأمام دار جدّك شجرة توت كبيرة؟ وبئر ماء طعم الماء فيه مالح برائحة الكبريت؟.

وقفت متحيراً، مشدوهاً: من أين لك هذه التفاصيل؟.ومن أخبرك؟.

خرج مبتسماً ولم يُجب إلاّ بعد أشهرٍ حين زرته معزياً بوفاة والده..ذهبتُ إلى قريته في جسر الشغور، وبعد واجب العزاء قادني إلى غرفة قديمة في زاويتها خابية فخاريّة كبيرة وغريبة، مملوءة بزيت الزيتون، قال صاحبي:

هذه أمانة لك..

قلت مستغرباً: أمانه لي؟. ممّن؟.

قال: في العام ١٩١٧ أحاق الفقر بجدّي والمنطقة، وغضبت الطبيعة معاقبةً البشر بشتاءٍ أغرق كل شيء، ثلجٌ دائم وجليد يغطي الأرض، الطرق مقطوعة عن العالم وكانت هجرة سفر برلك[1]. ونهب الوالي وعصابات الحرب وقتها لم تترك للسكان مؤونة أو أرزاقاً تغطي فقرها، كاد الفقر والجوع والبرد والمرض أن ينهك جدّي وعائلته الكبيرة، لم يذوقوا الخبز في أشهر الزمهرير حتى بقايا العدس والبرغل قد نفدت من البيت، وأيضاً البقرة -ثروة - جدي الوحيدة أوشكت على الموت جوعاً، حينها قرر جدي أن يذهب إلى منطقتكم كي يبيعها أو يبادلها بقمح أو عدس أو تين.. خرج جدي وعلى الطريق حاصرته الثلوج، فاختبأ في كهف وأضاع البقرة، بحث عنها طويلاً وسأل عنها في البازار[2]، ووضع اسمه وعنوانه عند المشرف على البازار ثمّ عاد خائباً إلى البيت..

---

[1] سفر برلك: موجات هجرة بشرية أيام الحرب العالمية الأولى، بسبب الجوع والفقر وعصابات الحرب.

[2] البازار: مكان مخصص لشراء وبيع الحيوانات الأليفة.

بعد عشرة أيام كانت الطبيعة قد هدأت وأشرقت الشمس، وإذ برجل منهكٍ قد سار ثلاثة أيامٍ يدخل على جدي قائلاً:

بقرتكم كانت ضيفاً في منزلي وعرفت من البازار إنها لك، وإليك ثمنها ليرةً ذهبية كاملة..

وهكذا كانت فرحة جدي لا توصف فقد أنقذه أبو نديم من محنة الجوع والفقر، وتصاحبا، وزاره في بيته وعرف الدار وأهل الدار بتفاصيلها والأسماء، ووعد جدكَ بهدية نفيسة من آثار السلف هدية تليق بأبي نديم، والهدية هي هذه الخابية[3] التي قاومت الزمن وكانت عصيّةً على الانكسار..

وعندما مات جدي أوصى بالهدية لجدك، وأبي عرف إنك حفيد الرجل الشهم فأوصى بها لك.

افترقنا بعد الخدمة الالزامية وصاحبي يلتقي بي كل بضع سنوات ويقول مبتسماً: الخابية في خير وسلام..

-١٩١٤-

عرفتُ إن صاحبي قد هاجر من قريته وقد صار عجوزاً وهو على فراش الموت في مشفى المدينة، فلذلك زرته، وحين لمحني قال:

أولئك الأوغاد عادوا بعد مائة عام، لقد هجَّرتنا العصابات، قتلوا ابني وأحرقوا بيتي وبستاني، ثم أردف وقد ملأت عينيه الدموع:

لقد كسروا وحطّموا.. الخابية..

[3] الخابية: وعاء من الفخار لحفظ الزيوت والسوائل.

النسغ

هي دورة الفصول الأبدية، أبجدية الطبيعة المتجددة..بعد أيام يأتي (سعد السعود)، تمتص جذور الأشجار رحيق الأرض.. يجري النسغ في الأغصان.. يصير براعمَ وزهراً.. يلتحف الثمر الصغير بأوراق خضراء.. مغتسلاً بالندى، وينمو إلى حده المطلوب لينضج غذاء، يمد الكائنات بغذاء يجري نسغاً في الشرايين.. يمنح الحياة والقوة للفلاح كي يزرع من جديد منتظراً عودة سعد السعود..

(شدود العليوي) يعرف تماماً تعاقب الفصول، في موسم قطاف الزيتون يقتسم حصته مع ابن الصافي صاحب البستان الكبير، أعطى الآغا الأرض للجد شدود وصار مرابعاً (له ربع الأرض والمحصول) كما هو العرف منذ قرن مضى، زرع أشجار الزيتون واعتنى بها كل عام، ثم أورثها لأولاده، وورثها منهم شدود الحالي.

كانت العلاقة بين الجد والآغا علاقة مودة، شدود العليوي كان أميناً ووفياً للآغا وللأرض، وابن الصافي كان يكرم المرابع ويهديه قمبازاً أو تاسومه تركية..

لكن العلاقة بين ورثة الصافي الذين يسكنون المدينة والمرابع الحفيد كانت علاقة شك، تحكمها نظرة استعلاء ودونية للمرابع، الذي كانت صفاته في الوفاء والأمانة تشبه جده الكبير، كأن نسغ الأصالة جرى في الأصلاب..

في أحد مواسم القطاف جاء ابن الصافي وأخته ليأخذا الزيت والزيتون، كان محمود الصافي شاباً باهت اللون أصفر، شاحباً، نحيلاً..

قال له شدود: أراك متعباً ما بك؟.

ردت أخته الشابة: مسكين أخي، لديه فشل كلوي كان يغسل كليتيه مرة كل شهر، والآن مرتين في الأسبوع.. ستنتهي حياته إذا لم نجد له متبرعاً يعطيه كلية منه..

حزن شدود المرابع وذهب إلى المشفى ليتبرع بكلية منه، كان عليه أن ينتظر شهراً حتى يتبين التوافق بين أنسجة الشابين، وزمرة وصبغيات دمهما. .

فرح شدود عند علمه بنتيجة التحاليل التي تؤكد إمكانية التبرع، ذهب مسروراً إلى بيت المريض وهناك صعق من جواب أخت المريض: لم نطلب منك التبرع.. شكراً

وسمعها تقول على الهاتف: مستحيل، لا.. هو غامق اللون وأخي أشقر.

هو مرابع في أرضنا..مستحيل دمه غير دمنا، وطائفته غير طائفتنا..

رجع شدود مكسور الخاطر حزيناً، وبعد شهرين تقريباً جاءته بنت الصافي:

لم نلقَ متبرعاً لأخي سيموت قريباً، اسمع، هذه مليون ليره ثمن كليتك ومليون كي لا تقول إنك المتبرع لأخي..

قال شدود: خذي أموالك أنا لا أبيع، وسأفتخر بفعلي ولن أصمت.

في اليوم التالي، تبرع شدود بكليته، منعته عزة نفسه أن يأخذ ليرة واحدة.

تمت العمليه بنجاح، وتغيرت حياة ابن الصافي.. تزوج وأنجب طفلة جميلة وزار شدود في قريته، كان شدود مسروراً وهو يرى محمود الصافي يلاعب طفلته في المرجوحة ويطوح بها عالياً، ويفتح ذراعيه محتضناً إياها، وضحكة الطفلة ذات الثلاث سنوات تجري كما يجري النسغ في الأغصان، واهبة معنى جديداً للعطاء والتآخي بين البشر..

علامة فارقة (الأصلع)

فانتازيا شرق أوسطية

الهدوء عادته، سمته التي يُعرفْ بها، يمشي ويتكلم بهدوء، يعمل بهدوء وبإتقان. لم يكن كالشباب بهذا الوصف، أغلبهم سريعو الحركة، سريعو الغضب والانفعال.

خرج شعلان مصعب الشعلان من البيت كعادته صباحاً إلى الساحة المستديرة، حيث ينتظر _الميكرو باص _الذي يقله مع آخرين إلى مقر عمله.. كانت الساحة بعيدة.. مسيرة نصف ساعة عن المنزل.. هذا الصباح أتم ثلاثة أشهر في العمل..

كان سعيداً لأنه وجد عملاً بعد سنتين على إنهاء دراسته، ولم يحالفه الحظ مثل زملائه الذين وجدوا عملاً بسرعة.. وكان حزيناً لأنه كان يحمل إمكانيات تجعله في مكان أفضل، ومنصب أعلى وراتب أكثر، كثير من رفاق المدرسة كانوا أقل علماً وإدراكاً وذكاءً منه، ولكن ظروفهم ساعدتهم في إنجاز دراسة جامعية.

لم يبتعد شعلان عن البيت كثيراً حتى رأى طائراً غريب الشكل، يحوم فوقه ويحط على رأسه، ينقره نقرتين على جبهته ويطير، حك شعلان جبهته وتابع، قبل أن يدخل إلى عمله، حط الطائر نفسه ونقره نقرتين وطار ..

في الصباح التالي جاء نفس الطائر وظل على رأسه ينقر بجبهته، حاول عبثاً مسكه أو إبعاده، طوح له بيديه حتى ابتعد..

ماذا يجري؟.. لقد تتالت الأيام والزائر الصباحي يعاود زيارته، حتى أنه صار يزوره أيضاً كلما عاد من العمل.. وهذا الطائر اللعين قد ترك ندبة في الجبهة تساءلت عنها زوجته:

ما هذه الدملة على جبينك ياشعلان؟. ألا تؤلمك؟

رد شعلان: لا أعرف.. لا أعرف.. أجل إنها تؤلمني

زملاء العمل رأوا الندبة، وقالوا: إنها صارت أكثر اتساعاً وأشد احمراراً..

تكررت زيارة الطائر لرأس شعلان، وطال وقت وقوفه ونقره في نفس المكان، ثم اتسعت مساحة النقر وتقرح الرأس قيحاً وسائلاً لزجاً يسيل على وجهه.

وسط ذهول زوجته التي سمعت الرواية ولم تصدقها مع إدراكها صدق زوجها الأكيد، ظل الضيف الثقيل يلاقيه في غدوه ورجوعه من العمل، وأحياناً وهو خارج من السوق أو من المقهى الأدبي الذي يراوده أحياناً..

زار شعلان الطبيب مرات دون جدوى، وزار أكثر من طبيب ولم ينفع الدواء بتاتاً في معالجة دمامل الرأس وبثوره وقيحه وتقرحاته ..

لم يتفق عارفوه على رأي، قال أحدهم: إنها لعنة على شعلان، وقال آخرون: إنها صفة على الغباء أو إن الرجل ممسوس أيضاً، وقليل النظافة، وقيل: إن الرأس يفرز دهناً كريهاً ونتناً، وربما نقل العدوى من بلد آخر، حتى إن بعضهم ابتعد عن مصافحته، وقال آخرون: نعم يوجد مثله الكثير في مدن وبلدات أخرى..

وجاء من قال سراً: اجتنبوا شعلان تماماً.. ابتعدوا.. إنه معدٍ

لم يهتدِ شعلان إلى قرار، هل يترك العمل مصدر دخله الوحيد؟ لا..لا.. لا يستطيع ذلك.. هل يلجأ إلى الشيخ الذي سمع أنه يعالج حالته ببول البعير؟ لا..لا إن تلك خرافة تعاكس أفكاره..

إحدى المساءات زاره أحد الاشخاص الذي لم يعرف على نفسه قائلاً:

اسمع يا عزيزي: نحن متألمون لوضعك، كان عليك أن تلبس القبعة التي يلبسها أغلب الشباب، القبعة التي تحمل صورة الشيخ المهيب.. صورة صاحب الجلالة..

حفلة ختان ولي عهد (شرشرستان)[4]

تلك الأيام بدا فيها الملك مزهواً وسعيداً، يمشي في حدائق القصر مبتسماً.. يوزع ابتساماته على الحراس، يدندن بأغنية ويصفر مثل الحسون المعشش في شجرة الحور العالية.

بعد خمسة عشر عاماً على زواجه، أنعمه الله بولي للعهد «ذكر»، سيحمل اسمه ويرث المملكة، صحيح إن له الكثير من الأولاد ولدتهم الجواري الحسان، لكن القادم الجديد هو ابن الملكة بنت الملوك. هو ثمرة زواج شرعي من سلالة ملكية «الأب والأم ملكان».

اجتمع جلالته مع أعمدته الثلاثة «رئيس الكهنة ـ قائد الجند ـ كبير التجار» سهروا، غنوا، رقصت لهم الغانيات حتى الصباح. ولأول مرة سمح لحراس القصر وعماله بحضور تلك الحفلة، وقد شارك الجميع جلالته بحماس، وبعضهم رقصوا مع خيولهم بجنون، حتى الأولاد والعبيد سمح لهم بالرقص واللعب.

عند الصباح وفي أوج نشوته قال الملك لرئيس الكهنة:

ما تقول في ولي العهد أيها الكاهن؟

همس الكاهن في أذن جلالته: يا سيدي، اذا أردت له حياة سعيدة يجب أن يختن.

تفاجأ الملك: ماذا تقول؟ هل نقلد قوماً آخرين؟

قال الكاهن: خبرتي تقول إن الختان يقوي أميرنا، والختان أصلاً للملوك، أما الخصيان فهم العبيد، أقترح ختانه بعد أن يكمل أربعين يوماً، ولك الأمر يا سيدي.

دارت الأفكار برأس الملك واتخذ قراراً بختان ولي العهد..

---

[4] شرشرستان ❋ تقرأ: شر- شر -ستان، أو: شرشر- ستان، او: شر-شرس-تان

انتشرت في المملكة الواسعة أخبار الحدث الكبير المنتظر، وعندما بلغ الطفل يومه الأربعين، تقاطرت جموع الناس من كل حدب وصوب نحو القصر، قطعوا المسافات الطويلة مشياً، حفاة، وراجلين.. يشيدون بالملك وولي عهده، ينذرون القرابين ويذبحون الكباش والماعز في ساحات القصر وعلى الطرقات، ويهتفون:

عاش الملك.. عاشت الملكة.. لتسلم حمامة ولي العهد، ولتحفظ الآلهة حبة البلح بين ساقيه.. عاشت حمامته إلى ما بعد الزمان..

أما الأعيان وحشود القصر فقد هاجوا وماجوا كما في الأساطير.. جفت حناجرهم من الهتاف حين دخل كبير الحكماء الذي سيختن ولي العهد، حتى كبير الكهنة حمل الطفل العاري بين ذراعيه عالياً ومشى به بين الجموع، وحين وضعه على الطاولة نادى: أعطوني ماء وحوضاً، ثم غسل جسد الطفل وسكب الماء في قوارير فارغة، وقال بصوت عالٍ:

ليسكب ماء الغسل في النهر فيتقدس الماء، وليسكب فوق الجبال لتصبح خضراء وليشرب منه المرضى كي يبرؤون..

حين سمع الملك كلام الكاهن تقدم وقال: أنصبك ملكاً على كل البلاد الوفيرة، الواقعة بعد براري الصيد..

انحنى الكاهن أمام الملك، أما أنصاره فقد هتفوا ورقصوا لملكهم الجديد..

أما رئيس التجار فقد قدم صندوقاً من الذهب لتوضع به الحشفة المباركة. وكبير الجند اعتلى المنصة وأشار للبدء في عملية الختان.

بلمح البصر مسك الطبيب تمرة الطفل وقطع حشفة المقدمة، فأخذها رئيس الجند ملوّحاً بها أمام الجماهير قبل أن يضعها في الصندوق قائلاً:

سنجوب بها البلاد، ونرجع ندفنها، ونبني لها مقاماً مقدساً يليق بولي العهد..

لكن رئيس الجند هرب بالصندوق ومعه قسم كبير من الجنود، وأرسل بعد ثلاثة أيام رجلاً إلى الملك يقول له: حشفة ولي عهدك ترجع إليك عندما توافق أن أقتطع لنفسي بلاد الجوز والريحان، وأصبح ملكاً عليها كما أعطيت غيري..

وافق الملك وأعاد الصندوق ليطمره، ويبني فوقه مقاماً مقدساً..

استغرق البناء أشهراً، وحين أنجز قال كبير التجار:

يا مولاي ضع رمزاً يشير إلى المدفون في المقام..

يقول الراوي: يا سادة يا كرام، إن كبير التجار جمع كل الفنانين والنحّاة والرّسَّام ولم يصلوا إلى رسم يعطي دلالة إلى يوم حشفة ولي العهد الذي صار يوماً مقدساً، واختلفوا بينهم بين قائل نرسم عملية الختان، أو نرسم تمرة ولي العهد وحشفته، أم نرسم بضع قطرات من دم أحمر، أو نرسم ساقين للطفل ينبع بينهما نهر ماء عذب أم..

يقول الراوي: أصبح الطفل ملكاً، وجاء بعده ملوك وملوك وتقسمت، ثم انتهت مملكة شرشرستان وما زال من تبقى من سكانها منتشرين في الأصقاع، يتنافسون ويختلفون ويتقاتلون على النقش الذي كان يجب أن يرسم على الضريح المقدس الثاوي في أحد بلاد الشرق القديم منذ(1790)[5] عاماً خلت، أي من ثمانية عشر قرناً يا رعاك الله..

فهل من أحد يساعد هؤلاء المساكين برسم أو نقش يكون رمزاً لعيدهم الوطني؟

[5] (1790) رقم به مداورة.

الصعل[6]

في مدينة يلبسها الخوف والحذر، في مدينة تأتزر بالبؤس والقلق، تلك المدينة التي يلفع ظهرها قيظ الصحراء، ووجهها تلطمه رياح البحر المالحة، مدينة المتاهات والآمال المخبأة خلف نظرات أهليها الحيارى؟

تلك مدينتي وأنا ملوث بذاكرتها، شاهد على حادثتها، وتلك الحادثة رأيتها بأم العين، في العاشرة تماماً تقف السيارة السوداء بلونها وزجاجها أمام الباب الحديدي الواسع، خلفها سيارة سوداء كبيرة وعالية، يترجل منها ثمانية بلباس داكن عسكري، أربعة منهم يدفعون حارس البوابة ويفتحونها كي تدخل سيارة الجنرال، وأربعة يسرعون إلى حيث المصعد يبعدون الناس دفعاً بالقوة، ويفتحون باب المصعد للجنرال ولاثنين من مرافقيه حتى الطابق الثامن.. جناح التوليد..

يفسح المرافقان الطريق إلى مكتب رئيس قسم التوليد الدكتور رياض..

يتفاجأ الدكتور بزيارة الجنرال فيستقبله مبتسماً:

أهلاً.. أهلاً.. هل من خدمة؟..

يقول الجنرال وقد جلس على كرسي عريض: أفرغ الجناح حالاً، أريده فارغاً بعد ساعتين، ستأتي زوجتي للولادة، هذا مولودي الأول بعد سنوات طويلة من العلاج وانتظار الأمل.. أين مدير المشفى؟

ارتبك الدكتور رياض واتصل بالمدير: دكتور هاشم، الجنرال هنا في مكتبي ويريدك هنا كي نفرغ الجناح فزوجته قادمة بعد ساعتين.

حضر مدير المشفى وكبير الممرضين وطاقم الحركة ونفذوا رغبات الجنرال.

---

[6] الصعل: مرض (الرأس الصغير).. المولود غير متناسب في النمو (جسد صحيح ورأس صغير)، يقال إن أحد اسباب المرض تناول الأب المفرط للمخدرات والكحول..

أفرغ الجناح من المرضى، تم تعقيم غرفة العمليات وغرف الجناح، حضر أطباء التخدير والتوليد والأطفال ودخلت الزوجة فور وصولها إلى غرفة العمليات.

بعد ساعة خرج الطبيب المولد مهنئاً الجنرال بسلامة المرأة وأعطى تقريره..

قال المدير: مبارك وليدك، إن شاء الله يرث مجد أبيه.

ثم خرج طبيب الأطفال وقدم تقريره كل شيء طبيعي اما الرأس فهو (صعل).

ضحك الجنرال مقهقهاً: الولد أصلعْ؟..طالع يشبهني

قال طبيب الأطفال: الوليد صعلٌ وليس أصلع..

قال الجنرال: صعل أو أصلع.. لا فرق.. كله تمام.. شكراً أيها المدير، مضطر للسفر حالاً، عملي هناك في العاصمة.. ستصل مكافأتكم.

خرج الجنرال مزهواً.. وبقي المدير وطبيب الأطفال يتناقشان في درجة الصعل للمولود وكيف ستكون ردة فعل الوالد حين يعرف درجة المرض الكبيرة (الصعل) ومسقتبل وليده، في ذات الوقت كانت رئيسة التمريض تصف المولود الجديد ضاحكة:

كان صعلاً، كالسلحفاة، جسد كبير ورأس صغير..

تمر الأيام والسنوات، لم يرزق الجنرال بطفل آخر، أما وليده الوحيد فكان ينمو جسداً ويبقى رأسه صغيراً، وحجم دماغه صغيراً، كالسلحفاة، أقرب إلى البلاهة، ولم ينفعه أي علاج.. بقي صعلاً..

عشر سنوات مضت حتى أصبح الجنرال والياً مطلقاً للمدينة، وكانت أول أعماله: أول انتقام من المدينة، تحويل المشفى الذي ولد به ابنه الصعل إلى بناء للرقابة العامة لضرورة تحديث المدينة، وبناء مشفى بديل خارج المدينة..

هذا المشفى القائم فقد أصبح داراً ملحقاً بالرقابة العامة، أما المشفى البديل فما زالت أعمدة الطابق الاول حزينة تعارك الهواء والمطر، وشاهدة على السكون المستمر منذ خمسة وأربعين عاماً..

المشفى الذي لم يكتمل بناؤه، وأظنه لن يكتمل أبداً.. لن يكتمل أبداً..

الأفكح (1)

في زمن قريب لم يمضِ قرنه بعد، زمن شرقي الملامح، قاسٍ بحرارته وصفاته، ضاغط بثقافة وأفكار تثير قلقاً وحيرة.. تثير أسئلة مريرة ويغيب معها كل جواب..

في بيئة تتنازعها سلطات خفية الملامح.. رياحها لا اتجاه لها، صاعدة هابطة ملتفة.. في بيئة تبحث وسط ضباب القادم من الأيام عن مشتهى طري ندي..

هكذا وجد (منذر)..

لم يكن يريد أن يوجد هكذا.. ولا أبواه أرادا أن يكون، ولا يوجد في سليل العائلة من يشبهه.. قدره أن يكون أفكح.

من سنينه الأولى بدأت حكايته، ومع طفولته الأولى بدأ وعيه، إنه مختلف في مشيه.. وفي محاولة الجري والقفز كالأطفال الآخرين، كان سؤالاً بريئاً وطفولياً:

بابا أنا لا أستطيع الركض؟.

وكانت تساؤلات الأطفال بريئة: لماذا (منذر) أفكح؟

في طفولته أدرك أن له صفة أخرى، صفة ناقصة.. سيئة..

كانوا ينادونه: تعال يا أفكح.. العب معنا.. فيصيح أحدهم: لا، لا، أنت لن تلعب معنا.. أنت أفكح..

وحدها أمه كانت تضمه وتقول: أنت جميل.. أنت حبيبي؟.

ينمو الطفل ومعه تكثر الأسئلة.. في عصر يوم ما وقف يراقب الأطفال وهم يركضون، كانت قربه امرأتان من الحي..

قالت إحداهن للأخرى: انظري ما أجملهم هؤلاء الأطفال..من عشر سنين وأنا أحلم.. يا رب ابعث لي طفلاً حتى لو كان مثل هذا الولد أفكح ..

لم يدرك منذر الصغير معنى دعاء المرأة وحرمانها من الأطفال، كما لم يدرك ما قاله الأب لأحد زواره مرة: انظر لقد رزقت بهذا الطفل الأفكح، إما غضب من الله علي، أو أن لعنة التصقت بالولد.. لعنة ما، ثقيلة.

كانت الاسئلة تثير قلقاً وغموضاً واستدارة في الفكر إلى حيث اللعنة أو حيث الغضب الواقع بسببه على الأب الذي تأفف مرات بغضب: أنت لا تصلح لشيء!!.

يكبر الولد.. اثنا عشر ربيعاً ثم تضاف إلى حياته غصة أخرى.. لقد رحلت الوالدة وتزوج الأب.. وصار لزاماً عليه الدراسة والعمل معاً..

بدا وسيم الوجه والشكل وهو يجتاز سن المراهقة وسني الدراسة، لم يكن موفقاً في اختيار شركة أو متجر كي يعمل. لا أحد يريد أفكح ولو كان ذكياً..

قرر الشاب أن يعمل لنفسه واختار مهنة طالما شغف بها: تصليح ساعات اليد..

وهكذا وجد نفسه على ناصية شارع ينفتح على ساحة المدينة الرئيسية، أمامه طاولة تطوى وتحمل صباحاً ومساءً، كرسي صغير يطوى أيضاً، وعلى الطاولة بضع علب معدنية فيها قطع تبديل للساعات.

سارت الأمور بشكل جيد، إتقانه وصدقه ساعداه في دخل يكفي ليعيش (مستوراً)، مضت سنوات عشر وما زال منذر في نفس الموقع وكان يحلم بامتلاك محل ذي واجهة زجاجية ومنار بالكهرباء وبه حمام صغير..

في صباح يوم خريفي وقفت أمامه صبية ليصلح ساعتها، فتحها، حرك ملقطاً كان بيده. بعد ثوان أغلقها: تفضلي ساعتك، مع السلامة..

قالت الصبية: كم تريد أجرتك؟ رد الشاب: لا شيء، مع السلامة..

ترددت الصبية، لكن منذر قال لها: لم أخسر عليها شيئاً، مجرد نابض فلتان.

غادرت الصبية شاكرة.. وعاد هو إلى عمله، ثم مرت أشهر وإذ بالصبية ذاتها تقف أمامه قائلة بخفوت: كم تساوي هذه الساعة، لقد دفعوا لي ثلاثين ليرة وأنا بحاجة إلى خمسين..

تفحص منذر الساعة وأجاب: حرام، الساعة نظيفة، تساوي ثمانين ليرة..

ارتبكت الشابة وقالت: اشترها أنت..

سحب منذر خمسين ليرة من جيبه وأرجع الساعة لها قائلاً:

لا تبيعي ساعتك الجيدة، وهذه حاجتك من النقود ترجعينها لي فيما بعد..

تململت الصبية، نظرت باستغراب، أنا سأبيع، اشترِ أنت، أنا لا أقبل ديناً..

قال منذر دون أن ينظر في وجه الصبية: الناس تساعد بعضها، خذي الساعة. أنت بحاجة لها، وأنا لا أقصد إلا الخير..

بعد إصرار متبادل ونقاش، أخذت الصبية المال والساعة، وأحست بشعور غريب ومفاجئ لقصة بدت غريبة، مع فرح داخلي لبقاء الساعة في يدها..

مضت أسابيع قبل أن تقف الصبية مرة ثانية أمام طاولة منذر تفي دينها وتقول مبتسمة: تفضل، أنا عاجزة عن الشكر، ليتني أرد جميلك يوماً ما..

قال منذر: لابأس عليك، اتركي النقود معك، فقد تكوني بحاجة لها..

قالت: الحمد لله، استلمت عملاً جديداً، شكراً مرة أخرى، سأبقى قليلاً هنا، ستأتي رفيقتي وقد تشتري منك ساعة لها..

قال منذر: حسناً، تفضلي.

ثم قام وأعطى كرسيه للفتاة، وذهب إلى حانوت قريب كي يأتي بكرسي آخر..

حين رأت الصبية منذر يمشي بطريقة غريبة يخطو على أصابع قدميه ويتمايل بجسمه مع كل خطوة، حينها وقفت مشدوهة اختلطت مشاعر الدهشة مع العطف مع الحزن وكانت دهشة عينيها قلقاً وتوتراً، رغبت في قول لا تستطيع قوله، وقفت واجمة وهي تجوس بعينيها جسده وهو يحمل كرسياً مبتسماً كأنه يقول:

أستطيع أن أفرح وأبتسم

جلست صامتة، ودت في داخلها لو رأت هذا الوجه الجميل والجسد الناضج فوق قدمين سليمتين، شرد تفكيرها إلى مكان ما، تقافزت نظراتها الحيرى مثل أفكارها..

قال مستفسراً: ماذا تعملين؟

قالت: في معمل للخياطة، لقد عملت أعمالاً كثيرة في المطاعم والمحلات والمزارع..

صمتت، طال صمتها، شعرت بشيء يشبه الخدر، شيء لذيذ يسري نحو القلب..

الأفكح (2)

ثمة أشياء لا توصف.. أشياء تومض كالبرق.. تهبط كنيزك.. كشهاب ضوء عصي عن اللحاق به.. سهم خارق نافذ في القلب تماماً كما وصفت زينب شعورها لـ(منذر) قالت له بعد أن سألها مستفسراً: لقد تأخرت زميلتك عليك؟

ردت عليه: أرجو أن تتأخر أكثر كي أبقى بجانبك.. لا أعرف ما الذي يشدني إليك؟ أشياء أعجز عن التعبير عنها، هل عطلتك عن عملك.

صمتت وهي تتأمله، ما الذي يجعله يبتسم هكذا للناس، ما الذي يجعله لا يأخذ أجراً من كثير من الزبائن؟ يهدر خبرته وصنعته هكذا بالمجان؟ دهشت حين رأته يسحب من حقيبة على الطاولة كتاباً بدأ يقلب في صفحاته فسألته:

ماذا تقرأ؟..

قال: أقرأ في رواية فأنا أحب الأدب والتاريخ، عندما لا أعمل أقرأ دائماً، وهذه سنتي الثانية في الجامعة..

قالت: شيء رائع، وهل تكتب أيضاً؟

أجاب منذر: انتبهي، لا يوجد شخص إلا حاول أن يكتب، رسالة أو خاطرة أو شعراً، لكن في النهاية يرمي ما يكتب..

وأردف: الكتابة فعل جميل وممتع، الكتابة فعل مفيد وظريف، أحياناً نكتب ما لا نجرؤ على قوله.. ثم نظر إليها، كانت تتفرسه بنظراتها مسمرة نحو عينيه تماماً

قال منذر مرتبكاً: أرجو أن تكوني بخير..

قالت: أكون بخير حين أبقى معك..

تململ منذر وتلعثم وهو يجيب: أنا؟.. أنا أقدر شعورك ولكني..ولكن.

قالت: أنت مازلت عازباً.. أليس كذلك؟.. اسمع: إن كنت تحلم بأنثى تشبهني فأنا سأحقق حلمك.. سأكون معك ولك دائماً..

إلى اللقاء سأراك بعد أيام..

غادرت زينب مع ابتسامة صغيرة وسط حالة من الارتباك والتوتر لدى الشاب منذر..

وفي اللقاءات التالية كانت زينب أكثر جرأة إذ قالت: لأنك أفكح تتهرب من أسئلتي، اسمع مني، لدي تجربة واسعة جداً، ولدي من الخبرة ما يجعلني أقول إن أغلبية الشباب يعانون من صفات سلبية غير مرئية.. انظر جيداً مثل هؤلاء الذين يمشون: الذاهبون لأعمالهم.. الباعة.. الموظفون.. أصحاب الصنائع والمهن.. المثقفون.. الواصفون أنفسهم من علية القوم.. لقد كنت قريبة منهم دائماً، لقد تعاملت مع مشارب شتى، كل واحد منهم كان أفكح العقل والفكر، أو أفكح الفعل.. وبخبرتي عرفت: لم يوجد واحد منهم ليس أفكح؟.

تثمر العلاقة بين منذر وزينب عن زواج بدا سعيداً. تدافع زينب عن زوجها بقوة واقتدار، تعلن للملأ أن عيباً خلقياً ليس بعيب كبير، بل العيب يكمن في شخص أفكح الفكر وأفكح السلوك..

يتعاون الزوجان في بناء أسرة ينجبان بنتاً وولداً.. تسميه الأم منذر الصغير محبة وتيمناً بوالده، تمضي بضع سنوات بوقت مليء بالعمل والنشاط، لكن قميص السعادة يتسخ بثقافة الاستعلاء على الأفكح، بثقافة الهزء من العيب الخلقي، ثقافة قوم يغطي عيوبه الخفية ويلبسها لغيره، ربما هي لعنة القدر على منذر أو قصاص وابتلاء..

تنتقل الصفة الناقصة من منذر الأفكح إلى منذر الصغير المنادى دائماً: ابن الأفكح..

مجتمع بائس بثقافة بائسة تجعل الطفل ينادي منذر الصغير: تعال يا ابن الأفكح.. تجعل البائع يقول: الآن دور ابن الأفكح.. وإحدى الساكنات جديداً في الحي تسأل جارتها عن الأولاد حولها فتشير الجارة: هذا ابن الأفكح..

ينمو الطفل وقد علق السؤال بعقله: لماذا أبي أفكح؟.. ومع نموه يعظم عليه نسبه، فيختزن ردة فعله إلى سلوك مشين تفسره بقية الحكاية..

خلف الضباب

حل ضيفاً مرة ثانية، جميلاً.. ساحراً.. غامضاً.. أبيض اللون، تراه ولا تلمسه، تقترب منه فيبتعد.. كثيفاً ولطيفاً ذات الوقت. هادئاً يرسم قبته البيضاء فوق الرأس..

خرج التلميذ من المنزل مستبشراً بالضباب الذي رآه مرة منذ سنوات.. خرج قاصداً مدرسة أبي تمام.. كان عليه أن يمشي من الرمل الشمالي إلى حي الفاروس أمام معمل الفستق، وتالياً المطحنة ثم محاذياً لمعمل التبغ (الريجي) وساحة الشيخ ضاهر.. كان يحفظ خط سيره.

رافق الضباب منتشياً بالبرودة الخفيفة. اجتاز ساحة الشيخ ضاهر إلى شارع هنانو ووقف يتأمل صوراً لأفلام على باب سينما اللاذقية.. لم يمنعه الضباب من رؤية ذلك الرجل الذي يدفع عربة صغيرة عليها برميل يجمع به قمامة الشارع..

راقب التلميذ (حسن) عامل النظافة وانتبه إلى المكنسة الطويلة بين يديه، ورجعت به الذكرى إلى جبل البلان.. كانت المكنسة حزمة صغيرة من نبات البلان اليابس، مربوطة إلى عصا طويلة، تكنس الأوراق وأكياس الورق الفارغة والكرتون والكثير من أعقاب السجائر.. لماذا ترمي الناس كل هذه الأوساخ في الشارع؟.. وهل يليق هذا العمل بالرجل ذي الشوارب السوداء الكثة والعريضة؟..

عبر الفتى ساحة السمك متجهاً شرقاً إلى المدرسة..

كان الضباب يضفي على النفس شعوراً بالهدوء والمتعة.. وكذلك أستاذ التاريخ بقصصه وحكاياته عن أحداث الزمن الماضي وأشخاصه.. عن الحروب والترحال.. وعن الطرائف التي يبدع الأستاذ القدير في شرحها.. وعن الملوك وغرائبهم.. عن ثورات العبيد والجياع والغزاة.. عن نضالها في سبيل الخبز والحرية والسلام.. عن الحكماء ومفاصل التاريخ..

دخل الأستاذ (فرحات) الصف.. لم يكتب كعادته عنوان درس التاريخ على اللوح بل قال للطلاب: اليوم ما في دروس.. سنخرج في مظاهرة..

أسهب الأستاذ في شرحها: معنى المظاهرة؟ ولماذا وكيف؟..وأين المسير؟.

عند العاشرة صباحاً خرج طلاب المدرسة وطلاب مدرسة الصناعة المجاورة، يتقدمهم أستاذ التاريخ وبعض المدرسين، ساروا في شارع القلعة نزولاً إلى تقاطع شارع هنانو، والتقوا مع العمال القادمين من المرفأ، وعلت الهتافات التي يسمعها حسن لأول مرة، كانت الأعلام ترتفع، وتفاجأ بأن مكنسة البلان ترتفع عالية في يد صاحبها، كأنها تكنس شيئاً ما. كانت ثمة مكانس أخرى ترتفع.. حضرت من خلف الضباب..

حمل أحدهم أستاذ التاريخ على كتفيه.. صار الأستاذ يهتف والناس تردد خلفه:

«عبد الله *ونوري السعيد*.. برا.. برا بعيد بعيد..

أمريكا ونوري السعيد.. بر ا برا بعيد بعيد

مطالبنا هيي هيي.. خبز وسلام وحرية

مطالبنا الشعبية.. خبز وسلام وحرية.. وغيرو ما نريد

وحدتنا الوطنية.. خبز وسلام وحرية »..

في الساحة الكبرى انضم حشد من الفلاحين بلباسهم، قادمين من جهة الشرق، وانضم كثيرون قادمون من شمال المدينة. دوت الهتافات في الجو وانتشر الحماس.. وتبدد الضباب.

بعد ستين عاماً كانت مدن مشرقية تردد مظاهرة مطلبها في الخبز والسلام والحرية، في وقت كانت تسير جنازة الأستاذ خلف الضباب..

ذبابة على شارب الملك

وقف الولد متسائلاً: ماذا تكتب يا جدي؟

: أكتب حكاية يا صغيري..

: هل أعرفها يا جدي، هل قصصتها علي قبلاً؟

: لا لا يا صغيري، فهذه حكاية للكبار

: وأنا صرت كبيراً، دعني أقرأ العنوان

ما هذا يا جدي؟ ذبابة على شارب الملك؟ ألا تخاف يا جدي؟ سمعت أن الملك يقتل من لا يحبه .

قال الجد: هذه الحكاية من الزمن القديم.. وملكنا المعظم لا يعاقبنا على قصص قديمة..

قال الولد: ولكنك قلت لي في حكاية سابقة إن كل الملوك يتشابهون. اقرأ لي الحكاية يا جدي.

قال الجد: كان الملك يوماً يتنزه في حديقة القصر الواسعة، يرافقه المسؤول عن القصر، نظر الملك إلى السور الخارجي وقال لمرافقه:

ارفعوا بناء السور

قال المرافق: يا جلالة الملك، لقد رفعناه أربع مرات..

قال الملك: لتكن هذه المرة الخامسة، وليكن ارتفاعه مضاعفاً..

اسمع: حين يكون السور عالياً لا أحد يجرؤ على تسلقه أو اقتحامه.. عُلُّوه، يعني قوة ومنعة، يجب أن تعرف المملكة بأسرها عظمة ورفعة هذا السور.

في ذلك الوقت حطت ذبابة على شارب الملك فطوح بيده يبعدها ومشى، ثم حطت ثانية فكشها بحركة من يده، وبعد خطوات ثبتت على شاربه، ضرب على خده ثم حاول أن يمسكها لكنها كانت تطير وتطن فوق رأسه وتحط من جديد على شارب الملك ..

اغتاظ الملك وصار يطوح بكلتا يديه، أمام وجهه وفوق الرأس، لكن الذبابة تعود للطنين والثبات فوق شاربه، وبقيت طيلة الليل تحوم وتطن وتثبت، حتى أحدثت دوياً في الرأس ووجعاً.

في اليوم التالي، في أول برهة في اجتماع مجلس الأعيان، دخل الملك ودخلت معه الذبابة الثابتة على شاربه الكث الغليظ، ولم تنفع كل حركات الملك في إبعادها وطردها، مما أفسد الاجتماع وأغلقه. بل وأفسدت وألغت جميع اللقاءات اللاحقة، لأن الذبابة صارت ملازمة دائمة لشارب الملك وصارت هاجساً وقلقاً لنفسه..

كيف الخلاص من تلك الحشرة اللعينة، لن يقص الملك شاربه الكث المفتول الذي هو أس صورته وتميزها، ولن يسمح لأحد أن يهزأ منه، سأقضي على منابت الذباب في هذا القصر، قال لنفسه.. وأوعز لجميع موظفي القصر وخدمه وحراسه بالتنظيف الدائم. نظف خزائنه الخاصة، وأزال جميع الحيوانات من قطط وكلاب وقردة كانت تربيهم الملكة، وكذلك حديقة الحيوانات الوحشية، ظناً منه إنها السبب في إدخال الذباب، ثم منع الجميع من التبول والتبرز داخل أسوار القصر، وأجبر الحراس على خلع أحذيتهم خارجاً، والدخول حفاة للحراسة.

كان السؤال محيراً: كيف تسللت الذبابة؟ هل أحبت شاربه ورأت فيه مكانا حسناً لتضع بيوضها فيه؟. هل أرسلتها الملكة سراً لتقضَ مضجعه؟ ربما أرسلها ملك آخر وحررها في قصره غفلة عن العيون..

وفي يوم لا ينسى طنت الذبابة ودخلت في أنف الملك، فهب واقفاً كالملسوع، وضغط على أنفه يقتلها، لكنها عضته وخرجت..

تورم أنف الملك، صار أحمَرً، ثم أزرقً وأسودً، غطى الورم وجهه وعينيه..

استدعوا حكيما تلو آخر، أعطوه شراباً، ومسحوا على وجهه زيتاً وعسلاً، لكن سم الذبابة جرى في جسده، وفقد القدرة على الحركة والكلام، وقبل أن يفارق الحياة نظر إلى ولده الذي نصبوه خليفة له، فرأى الذبابة تطير وتحط على شارب الملك الجديد، حاول الأب عبثاً أن يرفع يديه ليشير إلى الذبابة التي أنهت حياته، حاول ذلك عبثاً دون جدوى.

قال الولد : هل أصابت الذبابة السامة ملكاً غيره..

قال الجد: ألم أقل لك إن الملوك متشابهون؟

طوني المسكين

الأحلام لها رائحة ولها لون..

لون شفّاف لا يُرى..

الأحلام لها بيتٌ لا جدران له.. بيتُها النفس.. وللبيت طريق..

طريقها طويل ومخادع.. ملتوٍ لكنّه جميل.. يصعد من قدميها إلى أعلى وأعلى.. إلى الرأس، حيث عيناها ثم يغوص إلى الأعماق ولا ينتهي..

إيهٍ يا ابنة البحر.. هو ذا طوني مشلوحاً تبحث مقلتاه عنك.. طوني الصغير يسأل: أين ماما؟. وأين بابا؟. فيأتيه الصمت جواباً.. ثمّ يسأل في قادمات الأيام عن أمٍ وأبٍ فيكون الردّ: اصمتْ يا ولد.. اخرسْ.. وحين يعاود السؤال يكون الصفع والضرب والإهانة:

«راحوا عا جهنم، ان شاء الله تلحق فيهم».

كان الفتى طوني في الخامسة من عمره حين هاجر الوالد المدينة إلى بيروت ومنها إلى اليونان، وبعد أسبوع أتت أم طوني بولدها إلى بيت أخيها وقالت: أترك طوني عندكم وأنا مسافرة إلى بيروت كي أعود مع أبي طوني..

لكنّ الأم لن تعود ولن يعود الأب الذي سبقها وبقي الولد عند خاله الذي لم يرزق بالأولاد..

وتمضي أعوامٌ وصورة الأم أمام الطفل طوني، والحلم الكبير يتراءى في صور وضحكات وأراجيح مع أم طوني، أحلام لذيذة فيها.. يتسابق مع أمه ويتسلقان أشجاراً عالية، ويأكلان ذرةً مشويةً عند الكورنيش البحري..

وكل مرة كان ينقطع الحلم بضربة على الرأس أو رفسةِ قدم على الظهر من السيدة زوجة الخال.. فينتبه الجسد الطري: حاضر.. حاضر.. نسيت شو قلتي؟..

ولأن الأولاد يغريهم اللعب.. فقد كان طوني ينزل مساءً إلى الحارة ويطلب الإذن بالدخول فتنهال عليه الأكف واللكمات لتأخره في اللعب.. وتتالت المرات التي لم يُفتح الباب فيذهب هائماً لينتهي به المطاف في عربة فارغةٍ لبيع الخضار، صار ينام في جوفها

ليلاً ويتجول في المدينة نهاراً ينجز ما يطلبه أصحاب المحلات من خدمات يؤديها لقاء عدد من الفرنكات أو سندويشة تسد جوعه..

من يعرف طوني كان يكرمه إشفاقاً لكن أحداً لم يخرجه من تشرّده، حتى خاله وزوجته لم يعترفا بالواجب الأخلاقي الذي تفرضه قرابة الدم، وأخيراً ساعده نجار وصنع له عربة ينقل عليها بضاعةً للتجار نهاراً ويبيت فيها ليلاً..

كبر الفتى في ذاك البيت المتنقل وهو يحلم ببيت فيه أب وأم تحضنه.. وأخ يلعب معه.. كبر الفتى وهو يحلم بنظرة تقول له: أنت إنسان لك ما للآخرين..

كبر الفتى وهو ينتظر بانكسار أمام ثانوية (الأرض المقدسة) ويحلم أن يكون مع أقرانه في ذلك الجو الدراسي البهيج..

شبَّ الفتى على سخرية الأطفال منه، وعلى صراخ التجار بوجهه لتباطئه في تنفيذ الطلبات. صار طوني ينتقل مع منزله من حي الكاملية إلى ساحة أوغاريت، ثم البازار وشارع القلعه نزولاً إلى حديقه البطرني، وعلى عربته وضع خيطاناً لصيد السمك وعلب كبريت وأصدافاً بحرية، وبعضاً من الأمشاط وأشياء أخرى، لم يكن طوني ليبيع شيئاً، إذا احتاج أحد شيئاً يأخذه ويضع بعض النقود طواعية.. وطوني يجمع ما يلقاه من علب وبراغي وأعلام ومراوح صغيرة ودهان للأحذية وأربطةٍ متنوعة وخردوات قلّ أن توجد عند غيره ولكنها ليست للبيع.. ودائماً يُشاهد على كرسي خشبي صغير قرب عربته صامتاً لا يتكلم، وأحياناً تصدر من عربته موسيقى خافتة من راديو صغير، وكان يُشاهد دائماً مستيقظاً..

صار طوني رجلاً وسيم الشكل بيد أن مسحة الحزن والألم واضحةٌ عليه، والصمت والسهر صفتان لازمتان له، وأهم سجاياه عزّة نفسه، حيث لا يرضى أن يطلب عوناً، ويرفض أي شفقة..

صار الرجل طوني معْلَماً من معالم المدينة، معروفاً بعالمه الخاص الغامض، عالم يعيشه هو وحده.. يعيشه حراً.. مستقلاً من أوجاع العالم.. أحلامه هي أوجاعه، وهي أيضاً: حريّته..

اللاذقيه ٢٠٠٠م

طوني لم يعرف القراءة أو الكتابة.. طوني الحزين الكئيب، طوني المسكين الذي علمه القهر الصمت والسكون، طوني المحاصر، طوني الذي لا يعرف الكلام إلا من بعض كلمات للأكل والشراب..

اختفى طوني، افتقده الناس والشوارع، افتقدته عربته المتخمة بالأشياء التي جمعها خلال خمسين عاماً، أشياء تختزل نصف قرن من الرموز، وعمر رجلٍ اكتفى أن يعيش مراقباً لأحلام لم تتحقق، رجلٍ آثر الصمت سلاحاً له في مواجهة المدينة، رجلٍ تصاغرت عنده الأشياء الكبيره فجمعها في رموز وضعها في عربة هي ملاذه وتاريخه..

اختفى طوني أشهراً طويلة، وظهر ثانيةً وقد بدت عليه علامات الكهولة، كان حائراً يبحث عن عربته، لم يكن ليجيب عن سبب اختفائه، إلاّ أنّ أحد شهود العيان قال:

إنّ طوني كان موقوفاً ومشتبهاً به بأنه عميل للإمبريالية والصهيونية..

كانت الصدمة كبيرة، وكانت المفاجأة مروعة حين وجدت جثة طوني قرب شاطئ البحر..

لم يصدق أحدٌ الرواية إطلاقاً وما زال يتردد صدى السؤال:

لماذا طوني المسكين.. لماذا؟..

بطيخ أحمر . . بطيخ . .

٣٠ أيلول ١٩٦١م :

« إنْ هلّلتِ.. هلّلنالكْ

صبينا البارود قبالك،

إن هلّلتِ يا سورية. .

الواحد منّا يقابل ميّة ..

إن هلّلتِ في الجزائر..

هذا أخوكِ عبد الناصر..

إن هلّلتِ في القنال..

يحميكِ الريّس جمالْ.. »

وتصدح الحناجر مُردّدةً الشعارات والهتاف بقوة، بأصوات الطلبة الشباب المجتمعين حول الأستاذ فرحات.. تشرئب الأعناق، وترتفع القبضات في الهواء ثمّ يظهر الأستاذ فرحات محمولاً على الأكتاف مُردداً:

« اليوم عيد وبكرة عيد..

وغير الوحدة ما نريد..

وغير ناصر ما نريد.. »

في صباح ذلك اليوم الخريفي علمنا أنّ الدروس معلّقة، وأن المدرسين مختلفون في الإدارة، وأنّ أصواتهم وشتائمهم تعلو، وربما ضربوا بعضهم بالكراسي والأكف، قبل أن يخرج الأستاذ فرحات معلناً: سنخرج في مسيرة ضد الانفصال، سترجع الوحدة مع مصر، غصباً عنهم..

أمّا الأستاذ (أزهري) والأستاذ (أسمر) و(أبو زيد) و(شخيص) فقد هددوا بطرد كل طالب يسير خلف الأستاذ فرحات، لأن عبد الناصر- المجرم- انتهى ونلنا الحرية وخلصنا منه..

انقسم طلاب الثانوية الصناعية، لكن الغلبة كانت مع الأستاذ فرحات الذي قاد الطلبة إلى حي الشحادين، ومنه إلى الصليبة وقوس النصر، ثمّ مفرق حي الطابيات، وبعد أن اجتازت المسيرة المنعطف الأول في طريقها إلى باب المرفأ حيث ستلتقي مع عمال الميناء ويذهبون معاً إلى الشيخ ضاهر مع أفواج أخرى إلى السرايا يحاصرون المحافظ الذي عيّنه الانقلاب الذي حدث عند مفرق الطابيات الثاني، أنّ المسيرة حوصرت فجأةً من أناسٍ مسلحين بالسكاكين والعصي، شباب بعضهم ملثمون وبينهم طلاب وأساتذة من مدرستنا، وانهالوا عل المسيرة شتماً وضرباً.

والأستاذ فرحات كان المقصود الأول، ولقد رأيت بأُم عيني كيف جاءه أحدٌ من الخلف وغرز في مؤخرتهِ سكيناً حادّة، وأوغل رجل آخر سكيناً في خاصرته وهو يقول: الله أكبر عليك يا خاين..

علا الصراخ والهرجُ وتفرّقت المسيرة وهربنا كل في اتجاه، ورجعنا بعد أيام إلى المدرسة (المشاغبة) ولكنّ الأستاذ فرحات لم يعدْ، عرفنا إنّهُ سيق إلى السجن، وبقي سنوات طويلة هناك..

لقد بقي ابن الازهري والطويل والأسمر أساتذةً لهم القول الفصل، لأنهم مع الانفصال..

لم ينقطع الجدل حول أسماء ناصر وبكداش والحوراني والقدسي وعفلق، وتتابعت السنون وخرجتُ من الثانوية لأعود إليها بعد ثلاث سنوات مدرّساً فيها، وصرت زميلاً للأساتذة، خصوم الأستاذ فرحات، وبعد سنوات عديدة مررتُ أشتري بطيخةً من كومة بطيخ، اخترت واحدة وأعطيتها للبائع، وإذ بي أمام أستاذي فرحات فبادرته بالسلام:

كيفك أستاذ، اشتقنا لك..

التفت الأستاذ إلي قائلاً: أنت غلطان، أنا بائع بطيخ هنا..

وفي عودتي مرّات عديدة إلى بسطته استأنس لي، وعرفت منه أنّ حزبه تخلّى عنه وأنّه طرد من التعليم وقدّم لي خلاصة تجربته:

لا تُقدّس أحداً

٣٠ أيلول ١٩٧٠

ماتَ عبد الناصر، قبل ثلاثة أيام، أحدثت وفاته هزّةً عند العرب، خرجت جماهير تنعاه، من المحيط إلى الخليج، خرجوا في جنازات رمزية يبكون عبد الناصر (الحلم.. القائد.. رمز الخلاص من الهزيمة، - نكسة ١٩٦٧ - والحلم بالوحدة العربية)

كالعادة - الثانوية الصناعية في المقدمة، الطلاب والمدرسون في مسيرةٍ تحمل جنازةً رمزيّةً لقائد العرب والهتاف يشقُ عنان السماء:

« ناصر.. ناصر..

عبد الناصر لا تهتمْ.. عندك ناس بتشرب دمْ »

على الطرف الموازي للشارع الذي تسير فيه الجموع الهادرة، قرب كازية الصليبة، كنتُ أقف جانب الأستاذ فرحات خلف كومة البطيخ..

قلتُ لهُ: أستاذ فرحات، انظر، من يحمل الجنازة، ويهتف ويبكي لعبد الناصر هم نفسهم زملاؤك المدرسون -الأسمر والطويل وأبو زيد- الذين طعنوك بالسكاكين كرهاً بعبد الناصر، وهم يحملون قميصه كما حُمل قميص عثمان، وقد أودعوك السجن ورموك خارجاً..

كان الهتاف يبتعد ولم يكن الأستاذ مندهشاً مثلي، بل كان هتاف الأستاذ فرحات :

عالسكين يا بطيخ..

بطيخ أحمر.. بطيخ..

هامش خارج الحكاية..

ماذا يبيع الذين يشبهون الأستاذ فرحات..في العام ٢٠١٨؟؟ . .

المفتاح

1948 / 9 / 20

عند الفجر، لحظة السحر البديع، لحظةً لا جلبةً ولا ضوضاء، لحظة يختفي الدنَس كله، ولا يبقى إلا الجمال، في تلك اللحظة ولدتني أمي، هطلت دموعها وأشارت إلى «الداية» كي تراني، فسحبتني «أم سليمان» قائلةً: انظري، عيناه واسعتان، ووجهه مورّد ما شاء الله ..

نظرت إليّ أمي ووضعتني على صدرها، فسمعت وجيب قلبها، وشعرت بالدفء، لقد كان صدرها دافئاً وحنوناً، وقالت للداية: لطيف..

وهكذا صار اسمي: «لطيف»

1953 / 9 /20

عند الفجر، لحظة لا ضوضاء ولا جلبة، لحظة السحر البدئي لنهار ذلك اليوم، جاءني ملاك أبيض اللون، أيقظني:

ستغادر هذه الحياة، لا تخف فأنت معي، وهناك ستكون في آمانٍ وهدوء..

قلت: ولكنني صغير؟..

قال: الموت لا يعرف الأعمار..

قلت: ولكن ماما ستحزن وتبكي..

قال: الحزن وجه من أوجه الحياة..

قلت: ولكني لم أرَ الحياة بعد..

قال: الأفضل أن لا تعيشها..

قلت: بل الأفضل أن أعيشها..

قال: حياتك في هذه البلاد ستكون بطعم العلقمِ، مرارةً..

قلت: سأجرّب..

قال: ستأخذك البلواء من كل جانب، قدرك الشقاء في هذه الأوطان، هذه البلاد وجع الناس، ومسيرها عكس التاريخ، الموت أرحم من المذلة..

قلت: لماذا سأعيش ذليلاً؟.

قال: هذه بلادكم والفراعنة حكامها

وتجادلنا طويلاً، ثمّ حملني وطاف بي أرجاء الأرض، يابسها وبحرها، وعاد بي إلى أزمنة سحيقة وغابرة من ألوف السنين، وأعادني إلى زمني، وقال: ستبكون دماً في قادم الزمن، وستأكلون لحوم بعضكم كالحيوانات..

الملك اللطيف لم ينجز مهمته ووعدني أن يراني، مرّةً كل خمس سنوات ..

أفقت على ابتسامة الطبيب الذي قال: دعوه تحت المراقبة ثمان وأربعين ساعة، فمرض السحايا تلزمه العناية، ومرةً أخرى سمعت وجيب قلب أمي وأنا على صدرها، لقد كان صدرها دافئاً وحنوناً..

2018 / 9 / 20

شفيت من مرض السحايا عندما كنت صغيراً، وعشت الطفولة والمراهقة والشباب، تزوجت وأنجبت أولاداً، عاركت الحياة بعندٍ، وعاركتني بقسوة، علوتُ وهبطت، دخلت متاهات وأنفاقاً، حضرت حروباً، ولم يفارقني القلق، عدونا نحو الأمل وإذ بنا نعدو صوب السراب، حتى الحكايا التي نحكيها لأحفادنا لم تعد سارّة بل جافة ومؤلمة.

كل خمسة أعوام كان الملك اللطيف يزورني، فيحزن لحزني ويقول: ابحثْ عن خلاصك..

ولكني بلغت السبعين من العمر ولم أرَ خلاصاً، وبالأمس جاءني الملك اللطيف، وقال: ما الذي عملته في الحياة؟

قلت: أشياء كثيرة، كثيرة جداً سأكتبها في رواية..

قال: وكيف رأيت هذه البلاد؟..

قلت: فيها خير كثير، لكن شعبها..

قال: ألم أقل لك أنّ قادم الأيام لكم مليءٌ بالبؤسِ والدمار.. ما هو عنوان روايتك القادمة؟.

قلت: المفتاح.. ويا سيدي المفتاح هو قول الحق والحفاظ على ما بقي من كرامة

دروس في الحديقة

الساعة الثامنة إلاّ ثلثاً كان جاهزاً، حمل الأستاذ رفعت محفظته، أغلق الباب بهدوء ونزل من الطابق الثاني قاصداً ثانوية «الشهيد»، على باب العمارة ألقى تحية الصباح على بائع الحليب، ثمّ قطعَ الشارع ومال بنظره على حاوية القمامة ليعرف إن كانت قد أُفرغت ليلاً، وتابع حتى وصل إلى باب الحديقة التي تقع قبل المدرسة تماماً، وهناك التقى بأستاذ التاريخ الذي بادره: صباح الخير يا أستاذ رفعت، كيف حال التقاعد، الحمد لله على السلامة..

وقف الأستاذ رفعت كأنما وخزه شيء حاد في صدره، وتذكر أنه تقاعد يوم الخميس الماضي لبلوغه الستين من العمر، وأنه ارتاح يوم الجمعة، واليوم هو السبت وقد نسيَ وظنّ أنه ما زال مدرساً للغة العربية، وقف برهةً ثمّ انعطف إلى داخل الحديقة وجلس على مقعد خشبي، فتح محفظته وأخرج دفتراً وقلماً، وعدّل من وضع نظارته وبحلق أمامه..

الدرس الأول :

تراءى أمام الأستاذ المخضرم طلاب كثر، يجلسون أمامه، شرح لهم قواعد إعرابية وركّز على الأفعال ماضيها وحاضرها، وأفعال الأمر، وأسهب في الشرح عن الأفعال الناقصة، والأفعال الجامدة، وأفعال المقاربة والرجاء والمبنية للمجهول وما يلحق بها، وبماذا تُسبق الأفعال، وتبدلات حركات الإعراب، وعن شواذات الإعراب، وعن الأدوات والأحرف التي تجر وتنصب، عن المصادر والمشتقات، وعن.. وعن..

ودوّن في دفتره بضعة كلمات، ثمّ انتبه فجأةً إلى ساعة يده وأدرك أنّ حصة القواعد قد مضى عليها ساعتان، وأنّ أحداً من الطلاب لم يعد موجوداً..

الدرس الثاني :

انتقل الأستاذ إلى مقعد وسط الحديقة.. جلس وفتح محفظته، أخرج دفتراً وقلماً وبدأ يشرح للطلاب الذين تراءوا له، درس المنصوبات والمرفوعات، واستحضر الشواهد من نثر العرب، ومن الشعر قديمه وحديثه، وأطال في شرح الاختلاف بين مدرستي الكوفة والبصرة، وأعاجم الكلمات وما لا يقاس، والغريب في المنصوب والمرفوع والمضاف إليه، وأحرف التدقيق والتحقيق والمنصوب على الاختصاص ونزع الخافض، وعن أشياء وأشياء.. دّون الأستاذ في دفتره بضع كلمات وظنّ انّه تناهى إلى سمعه صوت جرسٍ تنبيهاً لانتهاء الدرس، فانتبه إلى فراغ المكان من الطلاب وصار إلى آخر مقعد في الحديقة..

الدرس الثالث :

قال الأستاذ للطلاب الذين ظنهم مجتمعين يستمعون، درسنا هام جداً عن الضمائر، منها المنفصل، ومنها المتصل، ومنها الواضح والمستتر، ومن الضمائر ما يلحق بغيرها، وهي مبنيةٌ ومعربة في شواذ أحياناً، وقد تكون حرفاً أو كلمة، وقد دخل الأستاذ في التفاصيل الكثيرة، وفي التفاصيل الجزئية، وأوضح طريقة وضعها في السياق الصحيح مع الأمثلة، وكيف تدخل على الأفعال والأسماء، والبعض من الحروف ومعنى بعضها ودلالتها، وأشياء أخرى كثيرة عن الضمائر، ثمّ وهو يدون شيئاً في دفتره سقطت ورقة عريضة يابسة فوق صفحة الدفتر، فأيقظت به إحساساً بأن الدرس الأخير قد استوفى الشرح، وإن يوم المدرسة قد انتهى، وأنّ الوقت صار ظهراً، والمدرسة قد أغلقت أبوابها..

الدرس الأخير :

الأستاذ رفعت ظل مسلتقياً على مقعد الحديقة، إلى أن أتى الطبيب الشرعي وقرر نقل الجثة إلى منزل الفقيد مع محفظته وقلمه ودفتره الذي كتب فيه بعض عناوين الدرس الأخير.. الذي كان سيلقيه الأستاذ في يوم قادم:

انتبهوا يا طلابي الأعزاء على أخطائنا نحن مدّرسي اللغة منذ مئات السنين ونحن نقول:

قتل الرجل عجوزاً

سيطر الجنرال على البلاد

يجلد السجان سجينه

اذبح.. اربح.. اكذب..

نقول كأمثلة إنها فعل ماضي أو مضارع أو أمر، وكان يجب أن نقول ونعلمكم إن «قتل» فعل جريمة وإن «كذب» فعل الحقارة وإن «يجلد» فعل مضارع وسخ، و«إن» فعل نصب فعل ماض إلى الانحطاط، وفعل «اذبح» فعل امر لوحش مفترس..

وفي المنصوبات والمجرورات من الأسماء ما يربك العقل ويغطيه بستار من الغباء والجهل، إذا لم نعرف متى يكون المنادى نكرةً، ولماذا ولمَ يكون الرجل مضافاً إلى غيره وهو مثله..

أما فقرتي في الضمائر فهي مقصدي في النهاية، حيث لا يكفي إعراب الضمائر في حال انفصالها أو اتصالها أو الحاقها، بل المهم أن نعرف في الحياة متى وكيف تبقى الضمائر حيّةً في نفوس البشر؟..

أبنائي الطلبة: آنَ لنا أن نبني ونضيف ثقافةً أخرى، وبلغة أخرى يتلاشى فيها دور الضمير المستتر، ويعلو فيها صوت الضمير العادل، الواضح، الضمير الحي..

الأستاذ رفعت. .

أبو خيارة

لا يفكّر النهر في مجراه.. يكفيه أنّه يجري..

لا تفكّر البراعم متى تصير أوراقاً وزهراً..

و(عبيدو) لا يفكر في قساوة الشتاء وبؤس الشتاء. .

عبيدو الطفل الذي تجاوز الأربعة أعوام.. والمحشور في غرفةٍ صغيرةٍ مع أبيه وأمه وأربعة أخوة، لا يعرف أنّ الشتاء فيه بؤسٌ وشقاء.. أنّ الشتاء فقرٌ مُضافٌ إلى فقر العائلة.

البيتُ غرفتان، واحدة للنوم والأخرى أصغر تتكدّس فيها أغراض متنوعة، ولم تكن القرية قد عرفت الكهرباء، وحتى إضاءةُ القنديل ليست ممكنة لأنّ - الحوائجي - أبا سميع لم يأتِ ليبيع زيت النفط حيث قطعت السيول الطريق عند نهر الضبع وبالتالي تنام الأسر على ضوء وهج الجمر في الكانون، مما يُجبر الأسر على النوم آن يحلّ المغيب.

في الشتاءات القاسية تبدو الليالي طويلةً.. طويلة، وفي إحداها استيقظ الولد عبيدو فرأى الجميع مستغرقين في النوم، التصق بأبيه قائلاً بخفوت: بابا.. بابا. .

استيقظ الوالد وقال: «نعم يا عبيدو شو بدك؟..»

قال الولد: «بابا، بدي خيارة. .»

قال الوالد مستهجناً: ارجع للنوم، ما عندنا خيار

قال عبيدو: «بدي خيارة.. بدي خيارة»

قال الوالد: لا يوجد خيار في الشتاء، نم يا حبيبي

بدأ الولد بالبكاء: «هلق، فوراً بدي خيارة»

قال الوالد: أستغفر الله.. أستغفر الله..

استيقظت الأم على بكاء الولد وحاولت إرضاءه: «بكره أجيب لك حلاوة.. يا حبيبي الخيار يكون في الصيف، ما بينزرع في الشتاء..»

ازداد بكاء الولد وازداد إصراره على الخيار، وعبثاً حاولت الام أرضاءه بملعقة من حفنة السكّر التي خبأتها إكراماً لضيف قد يأتي زائراً ..

الأب قال له: أعدك بمشوار فوق الثلج صباحاً،

لكن صراخ الولد علا مُصراً: «بدي خيارة.. هلق بدي خيار»

هدّد الأب عبيدو، لكن الولد ازداد عويلاً، عندها اغتاظ الأب وفتح باب الغرفة وترك عبيدو في فسحة الدار تحت وابل المطر الغزير المنهمر مع البرد القارس والظلمة التي تلفُّ المكان بسوادها وأغلق الباب..

رأى عبيدو نفسه تحت المطر والبرد فخاف وارتعد وصار يطرق الباب باكياً: «ما بدي خيار.. ما بدي خيار.. افتحولي الباب..»

«ما بدي خيار.. الخيار ما طيّب.. الخيار ما طيّب.. أنا ما بحبه»

في منتصف الليلة التالية استيقظ الولد ووضع يده الصغيرة فوق رأس أبيه: بابا.. بابا..

فتح الأب عينيه قائلاً: «ماذا.. شو بدك في نص ها الليل؟..»

قال عبيدو: أنا ما بدي خيارة.. أنا ما بحب الخيار.. الخيار ما طيّب يا بابا.. ما طيّب أبداً..

كبر عبيدو.. صار شابّاً وتزوّج ثمّ صار جَدّاً.. صار له أحفادٌ.. أحد احفاده جاء إليه يوماً قائلاً:

يا جدي، تعاركت اليوم مع رفيقي وضربته لأنّه قال لي:

جدّك أبو خيارة.. والأولاد أيضاً إذا أراد أحد أن يزعجني يقول عنك هكذا.. لماذا ينادونك بهذا اللقب؟..

ابتسم عبيدو الجد قائلاً:

لا تعارك أحداً يا بني، لقد علّمني هذا اللقب في الحياة شيئاً جميلاً وهاماً:

عدم الانشغال والتفكير في أيّ شيء بحياتي يتعذّر الحصول عليه

سيارة «أبو جهاد»

في السابعة صباحاً تَرَاها ثُريّا..زرقاءُ جميلة.. تتهادى على الطريق أحياناً وتثير الغبار من عجلاتها الخلفية حين تكون مسرعةً، وتحلمُ ثريّا أن تذهب مع الذاهبين في سيّارة أبي جهاد..

في السابعة صباحاً تكون الفتاة ذات الأربعة عشر عاماً تكنسُ أمام البيت الموازي لطريق القرية، فتتوقف ريثما تتلاشى زوبعة الغبار المثارة.. وتراقب لتعرف من الذي يجلس في الأمام قرب السائق

لم تكن ثريّا قد ركبت سيّارةً من قبل. ولم تكن ثمّة سيارة أخرى في – كرسانا– القرية الوادعة.. ويقفز السؤال إلى ذهنها:

متى سأصبح عروساً وألبس الأبيض وأركب في سيّارة أبي جهاد؟..

في خمسينيات القرن الماضي كانت سيّارة – الجيب – اللاند روڤر – تدخل القرية مع سائقها – رجل من القرية – في الخمسين من العمر، وكان ظريفاً جداً، ويعتبر إن الله أعطاه سيّارةً كي يخدم أهل قريته، ومن صفاته أنّه لا مبالٍ، ويتصرف بعفويّة واتكالية على الحظ، فهو يحمل في سيّارته أكثر من عشرين راكباً في حين إن السيّارة تتسع لخمسة ركاب فقط: راكب جانب السائق، وأربعة في الخلف، أمَّا هو فيحشر قربه ثلاثة، وفي الخلف تسعة، وعلى الباب الخلفي يقف ستة أشخاص وأحياناً اكثر، ويضع صناديق الخضار والسلال والأكياس على سطح السيارة، فتنوء السيارة الصغيرة بحملها كل رحلة ولكنها تصل بسلامٍ كل مرّة..

تقادمت السيّارة خلال سنوات قليلة نتيجة الإهمال والأحمال الزائدة. وصارت أعطالها متتالية بشكل دوري، وأصبحت مع صاحبها من طرائف القرية..

من طرائف أبي جهاد أنّ كابل دعسة الوقوف انقطع، ولم تعد الفرامل توقف السيّارة فربط حبلاً وأدخله إلى جانبه وحين يريد الوقوف.. يقول لمن قربه: ابعدوا عن الحبل ثمّ يشدُّ الحبل فتقف السيارة، ولم يُصلح العطل إلا بعد انقطاع الحبل ذاته..

في إحدى المرّات وبسبب الحمولة الزائدة انفجرت إحدى عجلات السيارة فتأرجحت يميناً ويساراً بمن فيها، وارتفعت الولولة وتعالى الصراخ، وإذ بأبي جهاد يعلو صوته:

«اسكتوا.. اسكتوا هلق بخليها تنام في الخندق..» وفعلاً ركنها في الخندق الموازي للطريق وتناثرت الأغراض التي وقعت عن السطح في الوقت الذي كان يصرخ - أبو تفاحة- في وجه أبي جهاد:

«يامجنون، راحت.. انعفست البندورة.. بدك تدفع لي تعويض..»

قال أبو جهاد: «هلق البندورة أغلى من روحك؟.. يا حمار».

وفي إحدى المناسبات كان أبو جهاد عائداً، وإذ بمحرك السيارة يصدر صوتاً ويقرقع، وتقف السياره مُعطّلةً في منتصف الطريق، غادر جميع الركاب المكان وبقي السائق وحيداً يبحث عمّن يعينه، فلم يرَ سوى حمار ربطه بسيارته وساق الحمار إلى أن وصل آمناً إلى منزله..

مضت سنوات أخرى قليلة أنهكتْ فيها سيارة أبي جهاد، وكانت تزداد فيها الطرائف عن السيارة وسائقها حتى لم تعد تُرى بعد ذلك ..

ثُريّا التي كانت تحلم بالأبيضِ، صارتْ عجوزاً، وفي مرّةٍ سألها حفيدها:

ستي، كيف كانت حياتك؟..

قالت ومسحة حزنٍ في صوتها:

«متل سيّارة أبي جهاد ...»

وفي رسالةٍ من أحد أبناء القرية إلى رفيقه خارج الوطن:

«**حالة الوطن الآن - إذا بتذكر - متل سيارة أبي جهاد . .** »

أسطورة المغربي

كل أبناء المدينة سمعوا باسمه، الأقدمون منهم يذكرونه بمهابة، واللاذقيةُ تُحب الغرباء.. هذا من شيمها، وتجلّهم إذا أقاموا بها وأعطوا قيمةً مضافة لتاريخ المدينة وصفاتها..

والمغربي كان ضيفاً قادماً من بلاد المغرب، حلّ في المدينة وبدت منه الكرامات.

ولهذا تُقسمُ بهيجة برحمة وقدسيّة المغربي ويقسم بروحه من ولدوا بعده ويزورون قبره وبنوا جامعاً يحمل اسمه..

تنقل بهيجة عن جدّة جدّتها أمِّ نور الدين التي ظلت تنظف قبر المغربي كل أسبوع لسنين طويلة.. وتشتري له الريحان لتُزيّن القبر قبل أن يُنقلَ إلى مكان آخر..

نعم، لقد أوعز حاكم المدينة العثماني منذ مائةٍ وخمسين عاماً بشقِ طريق إلى أعلى تل القلعة حيث سيبني خيمته الصيفية، وأمر بإزالة جزء من المقبرة، وبعض القبور التي تعترض الطريق. .

وهكذا بدأ العمل من نهاية حارة القلعة صعوداً باتجاه القمة، وحين وصلوا إلى طرف المقبرة، بدا العمل بطيئاً.. لأنّ العمال يفتحون القبر ويجمعون رفاة صاحبه ويدفنونه في مكان آخر بمعرفة وحضور أحد الأحفاد أو أحد من سلالة العائلة.. وهكذا حتى وصلوا إلى قبر المغربي وعلى شاهدة قبره كتب (قبر أبو محمد المغربي، دفن عام ١١٧٠ هجرية)

وحين وصلوا إلى عمق القبر نادوا «أبو عبد فتّاح» - الشجاع الذي يجمع عظام الموتى في الأكياس ليعاد دفنها لكنّ «أبو العبد» ما إن أزال أوّل حجر تغطي اللحد حتى رماها بسرعة وخرج يتصبّب عرقاً وقد اصفرّ وجهه وارتجفت يداه وصار يهمهم. .

أحاط به العمال وسألوه عمّا به؟ فأشار إلى اللحد، كرروا السؤال فقال: بسم الله.. أعوذ بالله.. الكفن جديد والوجه سليم.. انزلوا شوفوا.. انزلوا شوفوا..

قال الرجال لبعضهم: معقول مات المغربي من أكثر منذ مائة عام وجسده سليم؟!!..

وأخيراً تطوّع أبو العز ونزل وأزال الحجارة وسط ترحيب الرجال الذين أثنوا عليه ونادوه (عفاريم يا عنتر)[7]_منذ ذلك الوقت تأسست عائلة عنتر المحترمة والأصيلة في اللاذقية-

لكنّ عنتر رأى شيئاً غريباً.. رأى جسد المغربي كاملاً كأنه دُفن منذ ساعة ورأى ما هو أغرب: كان المغربي يقبض على خنجرٍ مُطعَّمٍ بالفضّة!!!.

قرر الرجال أن يُخرجوا الخنجر ثمّ ينزل الرجال ويخرجوا الجسد كله، لكنّ «أبو العز» -عنتر - حين نزل وحاول أن يسحب الخنجر.. لم يستطع، حاول أكثر من مرة ففشل.. نزل رجلٌ آخر وفشل في انتزاع الخنجر، وتوالى الرجال لكنهم فشلوا جميعاً ..

علت الأصوات واختلطت.. وازداد الحاضرون وبلغ الخبر حارة القلعة وانتشر إلى بقية الأحياء:

جسد المغربي سليم وخنجره في يده لم يستطع الرجال نزعه؟..

بلغ الأمر حاكم المدينة فجاء.. جلب معه أشجع الرجال.. لكنهم فشلوا في سحب الخنجر من المغربي

اجتمع الحاكم مع الوجهاء والأعيان، وقبل أن يقرروا إعادة القبر إلى حاله قال أحد الرجال للحاكم: سمعت أنّه في جبل -الحفّة - بضعة رجال منقطعون إلى العباده فلنأتِ بسيدهم. .

في اليوم التالي أحضروا رجلاً عجوزاً وأنزلوه إلى اللحد، حاول الرجل سحب الخنجر، ففشل ثمّ حاول وخاب أيضاً.. نظر الرجل إلى فوق حيث يراقبه الحاكم والوجهاء ثمّ قال: ابعدوا هذا الرجل الغريب.. وأشار إلى الحاكم.. تردد الحاكم ثمّ تراجع إلى طرف المقبرة..

انحنى الرجل العجوز حتى قارب فمه أذن المغربي وهمس بكلمات مبهمة واستقام.. ثمّ أعاد الكرّة وهمس في أذن المغربي ووضع يده على الخنجر فسحبه بهدوء..

---

[7] عفاريم: كلمه تركية تعني أحسنت

علا التكبير والتهليل.. ازداد الهرج والمرج.. هرول الجميع وتقدّم الحاكم طالباً الخنجر، لكنّ الرجل العجوز رفض الطلب وأشار: خذوا الجسد في تابوت إلى الجبل وادفنوه هناك ..

قال الحاكم: والخنجر؟ ..

قال الرجل العجوز: يبقى مع من هو أهلٌ له.. وأجدر بحمله..

ثمّ انحنى الرجل فوق التابوت وأودع الخنجر في يد المغربي ودفن حيث هناك.. فوق الجبل..

قال الشابّ المتفذلكُ ابن بهيجة:

«العمى؟..!! في القرن الواحد والعشرين توجد هيك أساطير وترهات.. وخنجر في يد ميّت ما ينسحب.. ههه؟»

قال له أحد الرجال الوقورين:

يا ابني، لا تفهم الحكاية بكلماتها.. اعلم إنّ الخنجر هنا هو صوت الحق، وهو سلاح القوه الدائم الذي لا يفنى ذكر صاحبه..

ألْ التعريف

والمُعرّفُ بالإضافة

..١٩١٧

لم يرجع الطفل عيّاش ذلك اليوم إلى منزله، بحثوا عنه منذ الظهيرة، وحين حلّ المساء ازداد قلق الأهل، توزّع الباحثون عن الطفل ذي الثماني سنوات لدى الجيران وعلى الطرقات وفوق الأسطح وعادوا خائبين، وقُبيل منتصف الليل سمع البعض خشخشةً في أغصان شجرة التوت الكبيرة، ثمَّ شاهدوا جسد الطفل عيّاش وقد تكوّم على الأرض الذي وقف يرتجفُ خوفاً وتعباً.

ارتفعت أصوات وهمهمات وتهديد بالعقوبة الشديدة، وحين هدأت النفوس اعترف عيّاش أنه كان يودّ النوم فوق شجرة التوت وإنه أراد الاختباء أياماً كثيرة كي لا يذهب إلى (المكتب - المدرسة-) حيث المعلّم، مصطفى الذي أوجعه ضرباً لأنه لم يحفظ درس اللغة العربية ولا يعرف الفرق بين (ألْ) الشمسيّة و(ألْ) القمريّة.

عوقِب الطفل، ضَربهُ الأبُ، وفي الصباح أخذه إلى المدرسة حيث الشيخ مصطفى:

يا شيخ، هذا عيّاش، كان هارباً من البيت خوفاً من درس اللغة، خذه وأسلخ جلدهُ عن عظمه، عجيبٌ أمره؟.. قال إنّه يعرف (أل)التعريف ولكن ألْ الأخرى لا يعرفها..

قال المعلّم: قلت لهُ مراراً: ألْ الشمسيّه لا تُلفظ، وألْ القمريّه نلفظها.. تعال يا ولد: أعطني مثالاً عن ألْ القمريّة وعن أل الشمسيّة

لم يُجب عيّاشٌ.. فقال المُعلّم: حسناً أعطني كلمه فيها أل التعريف؟

قال عيّاش بثقةٍ: الحمار

قال الأب: أعطنا جملة؟..

قال عيّاش: الأستاذ الحمار. .

قهقهَ الطلاب وانهالت يدُ الوالد ضرباً على وجه عيّاش. ومنذ ذلك اليوم أصبح اسم عيّاش (ألْ التعريف)

أصدر الحاج مصطفى قراره على عيّاش أن يّضاعف (خميسيّته) - وهي ما يأتي بها كل طالب يوم الخميس من كل أسبوعٍ من بيضٍ وبرغلٍ و(شلفون)* وشنكليش وفاكهةٍ وغير ذلك أجرةً للمعلّم الذي يجمع غلّته الأسبوعيّه ويرجع بها إلى المدينة، ويعود يوم السبت أو الأحد من الأسبوع الذي يلي، وعيّاشٌ يرضخ للأمر ويأتي مستمعاً فقط كي يحفظ غيباً - جزء (عمَّ وتباركَ) من القرآن الكريم كما يرغب والد عيّاش..

شبّ الفتى عياش على وجودٍ مختلفٍ فوق هضبة القرية الصغيرة، كانت فرنسا قد دخلت البلاد وبدأ (الدرك)* يبنون مخفراً جميلاً لهم، ولهذا اغتاظ المراهق عياش وبدأ مع أترابه المراهقين يرمون الذين يبنون المخفر والدرك بالحجارة بصورة دائمة، مما أزعج عناصر الدرك، ولم يفلح التهديد في ثني المراهقين وإبعادهم، حتى أحضروا «عياش» وهو أكبر الفتيان وأعطوه عملاً دائماً وأجراً مع بعض المراهقين ..

كان عياش أنشط الفتيان، وأكثر تحملاً للعمل، بقي مع الدرك سنوات يطعم خيولهم الجميلة، ويأتي إلى الجنود بالماء من النبع القريب، وينظف المخفر والساحة التي تحيطه، ويراقب متحسّراً بين حياة الدرك وأسرهم، وحياة الأسر في قريته الفقيرة والبائسة وثمّةَ غصّةٌ تكبر، وجرحٌ يؤلم لحال القرية التي ينهشها البؤس..

عيّاش تعلّم الفرنسية، وصار يعلّم بعض الشباب اللغة لفظاً دون الكتابة، وأصبح اسمه **الأستاذ أل التعريف**

تزوّج العيّاش وأنجب أولاداً.. ابنه البكر جابر، تعلّم الفرنسية لفظاً وكتابةً وصار يقرأ كتباً كثيرةً حمراء اللون، ويسهر مع مجموعات من الشباب ليالٍ طويلة، ويسافر إلى أماكن

بعيدة، ويأتي بقطعتين أو ثلاثة من السلاح يُخفيها في مكانٍ ما، وعيّاش يثق بابنه الذي صارحه يوماً:

إننا نقوم بالواجب نحضّر أنفسنا للثورة، وطرد هؤلاء.. وأشار إلى المخفر ..

مضت ثلاث سنوات بعدها اندلعت ثورة الاستقلال واستمرت إلى أن جاء اليوم الذي استشهد فيه جابر ابن الأستاذ عياش بطلاً من أبطال التحرير ..

١٩٦٧

ابن جابر (عيّاش الصغير - كما كان يُلقّب - حفيد الأستاذ عيّاش، اسشتهد أيضاً في حرب حزيران على الجبهة العسكرية، كان مُثقّفاً كأبيه، شجاعاً، غيوراً، أبلى بلاءً عظيماً ضدَّ أعداء الوطن.

في تشييع الشهيد تقدّمَ الأستاذ (ألْ التعريف) والذي صار شيخاً هرماً، وبارك الشهيد المُسجّى والمُغطّى بعلم الوطن:

أبارك لك الشهادة يا عيّاش، وأقول لكم: كان اسمي مسبوقاً بـ أل التعريف، والآن أفتخر أمامكم بأنَّ اسمي هو المُعرّف - ليس بألْ التعريف - وإنما المُعرّف بالإضافة، فأنا والد شهيد.. وجدُّ الشهيد..

أنا المُعرّف بالإضافة. .

الأقرع

للمرّة العاشرةِ أصبرُ عليه، ربّما أكثر بكثير، قلتُ لَهُ:

«لا توتِّر أعصابي، الله يرضى عليك، انتبهْ عا الدرس جيّداً»

قَالَ لي: حاضر أستاذ

قلتُ لَهُ: تعالَ إلى الخارج، هناك تحت شجرةِ الزيتون يكونُ مجلسنا.

جلسنا في ظلّ الشجرة، قرب الجذعِ، قلتُ لَهُ:

درسُنا في قواعد اللغةِ العربيّةِ سهلٌ جدّاً، متى تُكسَرُ همزة إِنَّ، ومتى تُفتَح؟

همزةُ إِنَّ تُكسَرُ في الحالاتِ التالية:

أولاً: إذا وقعت أولَ الكلام

ثانياً: إذا وقعت بعد القولِ

ثالثاً: إذا وقعت في جواب الشرط

رابعاً..

كان جابر الطالب مُطرِقَ الرأسِ، حسبتُهُ مُنتبِهاً، فقلت:

سأعيد هذا الجزءَ مِنَ الدرسِ مع الأمثِلة، وبدأتُ بالشرح، أطلتُ وأسهبْتُ، أعيدُ الفقرةَ مرّاتٍ والأمثلةَ مرّات، وجابرٌ ما زالَ مُطرِق الرأسِ..

حسناً، هل فهمتَ الدرسَ؟ هل أُعيدُهُ؟

عدّدْ يا جابر متى تُكسَرُ همزةُ إِنَّ وأعطني مثالاً لها..

رفع جابر رأسهُ وقال لي وهو يُشيرُ بإصبعهِ:

أستاذ، هل ترى هذا الجُحْر للنمل؟ هل تعرف كم نملةً دخلتْ بهِ؟

قلتُ وأنا أعضّ على لساني كاتماً غيظي: كم

قال: ٢٧٦ نملة تماماً..

قلتُ وأنا أهوي بِكَفّي على وجهه: ولَك، الله لا يجبرك يا جابر، نشَّف ريقي، جفَّ حلقي، أنهكني التعب.. أنا أشرح وأنت تعدُّ النمل يا..

تملَّصَ جابرٌ وهرب، رجعتُ خائباً وأنا أتمتمُ وأحوقلْ؟..

بعد سنوات، في أحدِ الأيامِ القائظة، كنتُ أنتَظِرُ (السرفيس) كي أصِلَ المدينة، وقفت جانبي سيّارةٌ حديثة، وجّهَ سائقها رأسهُ إليَّ قائلاً:

أستاذ كمال، بتعرف كم نملة كانت تحت الزيتونة؟.

كان السائقُ هو نَفْسُهُ جابر، يلبسُ نظّارةَ رجلِ أمنٍ ويقود سيّارةً لوحتها خضراءُ اللون!!..

الأهتر- (همروج النمروج)

قال الجدُّ أبو صبحي:

كنّا مثلكم يا أطفالي.. أعمارُنا وقتذاك مثل أعماركم، وكنّا نلعب كثيراً كما تلعبون، الأولاد أذكياء جداً، يخترعون ألعابهم ويغنون أناشيدهم ويمرحون.. يركضون.. يتقافزون.. يُجرَحون.. يتخاصمون، ويتراضون فوراً بعد الخصام..

كنّا نخترع ألعاباً من الحجارة الصغيرة ومن أغصان الأشجار.. من أواني البيوت التالفة ومن كتل الطين.. وألعاباً من القَشّ والثياب البالية..

وكنّا نغني.. وفي الغناء متعةٌ ونشوةٌ.. نردّد ما حفظنا ونؤلف الأغاني قد لا تحمل أي معنى.. هكذا عا القافية. .

قال صبحي الصغير: غنِّ لنا يا جدي الله يخليك..

قال أبو صبحي: حينما تمرّ قافلةُ الجِمال الضخمة يقودها الحمار الصغير نركض خلفها ونغني:

ترَّن.. ترّن.. موبعا.. جاءك همروج النمروجْ ..

جاءك ياجوج وماجوج .

من همروج ومن ياجوج؟.. لا نعلم.. الغناء نفسه هو الهدف.

أمّا الأغنية الجميلة ذات المعنى فكنّا نغنيها ونمثّلها أيضاً.. نعم لقد كنا نجيد المسرح..

عند دارها، كنا نمارس طقوس اللعب الجميلة، خرجت المرأة الكبيرة وقالت: روحوا غنّوا للمطر يا حلوين، وأعطتنا جرّة فخّار.. كنّا ثلاثة أولاد مشينا نصفق ونغني الأغنية التي كنّا نحفظها:

«يا دنيا شتّي علينا.. بحق محمد نبينا

تا تخضرّ أشجارنا.. وتا تجري سواقينا»

كان الغناء ضعيفاً ثمّ ارتفع حالما انضمّ ولدان آخران، بدأنا بطرق الأبواب، وحين يفتح لنا أحدٌ يعلو الغناء ويعلو، فيدخل الفاتح البيت ويعود بحفنةٍ من التين أو حفنةٍ من البرغل.. نتابع السير وينضم إلينا أطفال آخرون ويعلو الغناء:

«يا سما شتّي علينا.. بحق محمد نبينا»

ويزداد العطاء والكرم.. يرفع كل طفلٍ ثوبه الطويل.. يجعله صرّةً وتمتلئ كل صرةٍ بالتمر أو البيض أو الشنكليش أو أرغفة الخبز المشوي في تنور القرية، وأيضا تمتلئ الجرّة بالزيت، يبتسم الجميع ونحن ندور حول القرية ونسمع:

دعاؤكم مقبول إن شاء الله..

الله يسمع منكم أيها الأبرياء..

يا رب تمطر علينا أراضينا صارت جفرة وأشجارنا يابسة..

انقطع المطر وجفّ الزرع والضرع، يا رب تقبّل دعاء الأطفال..

وحده حمدان أغلق الباب في وجوهنا، فانبرى أشقانا (يحيى) وبدأ بضرب الحجارة على باب ومنزل حمدان وتبعه آخر وآخر بقذف الحجارة وتابعنا غير آبهين بشتائم حمدان ولعناته..

انتهت دائرة القرية عند بيت (قطيفة) التي أخذت لنفسها الزيت وطلبت أن نأخذ ما جمعنا إلى دار الأخرس ودار –حمامه – ودار الأرملة أم الثمانية ..

أشقانا (يحيى) كبر وتعلّم.. لم تكن في بيوتنا مكاتب أو غرف مستقلة، أو أضواء تنير للقراءة، كانت دروب القرية الطويلة والمتشابكة، تعرفنا ونحفظها غيباً، فوقها نسير حاملين الكتاب وعلى جوانبها نستريح ونحلم..

يحيى.. كان يحب طريقاً واحداً.. طريقاً توصله إلى قرية (بكسا)حيث نصفه الآخر.. ملهمته وأمله وحبه العظيم كما يقول..

بين القريتين وادٍ عميق.. وطريق تُرابيّة عريضة، وفي ذلك الوادي درس يحيى وكان جاداً، ثمّ تخرج كأول مهندسٍ في المنطقة، وعمل بنشاطٍ كي يأخذ موافقةً من الدولة ويبني سداً في ذاك الوادي بين قريته الهاجعة على كتف الوادي الأيمن وقرية خطيبته على كتف الوادي الآخر..

بعد سنوات جاءت الجرّافات الثقيلة والسيّارات والعمال وارتفع السد، وأضحى فوقه طريقٌ جميلٌ يصل بين قريتين قرية جدّكم يحيى -(القنجرة) وقرية جدتّكم حياة (بكسا).

قال الطفل صبحي: يعني أنت يحيى والتاتا حياة؟

قالت الجدّة حياة: الفضل لجدّكم الذي بنى السد، انظروا إلى جماله وانظروا كيف تسبح فيه أسراب البط والوز..

وقال الطفل ثانيةً بعفوية: كيف امتلأ السد؟..

أجابت أخته حياة الصغيرة: من مياه الأمطار والسواقي..

قالت الجدّة حياة: من دعائكم يا أطفالي.. ومن دموع الأمهات

على جسم السد قالت الطفلة - طلْ : جدو غني لي..

وهكذا شوهِدَ رجلٌ كبير السن اسمه يحيى يمسكُ بيديه مع ثلاثة أطفال وهم يغنون:

«يا سما شتّي علينا..»

قال أحد الشباب العابرين لرفيقه وهو يشير إلى الرجل الذي يرقص مع الأطفال

: شوف الأهتر.. شوف!!..

البشلوق

هذا سليمان..

هذا من نكهة الطفولة.. من شقاوتها.. من مغامراتها الصغيرة..

هذا سليمان.. من نكهة ذاك التاريخ وتلك الحارات.. هذا رفيقي الذي أشمّ معه رائحة - البرغل بحمص- وأرى وهو يرى معي أقدامنا الملونة بغبار الطرقات الأبيض الممتزجة بدماء الجروح النازفة من الأشواك، أو الكدمات الحاصلة من اللعب بالطابة والدحل. .

هذا من نكهة الطفولة التي تحلم بالطيران، واللذيذ من الطعام، والبحر.. والحرية..

هذا سليمان الذي سرق دجاجةً من دجاجات أم عامر.. وأخذني معه إلى البرية، نتف الدجاجة وأشعل ناراً وشواها فأكلنا وشبعنا -لأول مرة -لحماً لذيذاً، وفي اليوم التالي قالت لي أمي بحزنٍ واضحٍ : لقد فقدنا دجاجتنا الوحيدة التي تبيض كل يوم بيضة، كانت الدجاجة تبيت أحياناً مع دجاجات أم عامر.. ما حدا سرقها غير رفيقك ابن البشلوق..

مرّت ايام، وحين لمحتْ أمي سليمان، نهرت في وجهه قائلة: وين دجاجتنا؟.. انتبه.. ما عاد بدي شوف وجهك، ثمّ قالت بخفوت: ابن البشلوق..

في المساء سألت أمي، من هو البشلوق؟..

قالت: هو جدُّ سليمان، رجل أسمر، نحيفٌ، علامتهُ في فمه سنان بارزتان كبيرتان ظاهرتان خارج الفم دائماً، المشهور عنه سرعته في استقبال الدرك التركي.. وتنظيف خانهم وخدمة أحصنتهم ومنازلهم بأجرٍ زهيد، وخدمة المختار وزوجتيه وأولاده ببعض من طعام يلقونه له.. كل من طلبه -كما وصفته امرأته يوماً - يفلح عليه كالثور من الصبح للمساء ويستغلونه بقليل من الفرنكات والقروش..

وحين مرض البشلوق الجد ولزم فراشه طويلاً لم يلتفت إليه أحدٌ.. رموه كالبشلوق أي كالحذاء الذي اهترأ ولم يعد صالحاً، فلا قيمة له..

لم يكن أبو سليمان مختلفاً عن أبيه في (البشلقة) حين عاصر الفرنسيين الذين احتلوا البلاد فقد اعتاد الدرك الفرنسي والآغاوات الذين يمتلكون أراضي القرية وكرومها، اعتادوا أن يُسخّروا الرجل لكل عمل وضيع أو مهمة فيها تعب وخطر مقابل النزر اليسير من الأجر، كل هذا والرجل لا يأبه لنصيحة أحدٍ، فالكل -تقول الحكاية- كان (يبشلق) به

اعترافات العام ٢٠١٨

تمرّ عشرات السنين.. ألتقي مع سليمان:

ايه يا بن الحارة، صرنا عجوزين، تعال اجلس، عساك بخير؟.. أراك مهموماً؟..

جلس سليمان، مضت دقائق، كان يجيب على الأسئلة باقتضاب.. ثمّ قال:

«شايف الوضع اللي نحن فيه.. شوف شو كاتب حفيدي؟»

أخرج سليمان من جيبه ورقة كان مكتوباً فيها:

أنا الدكتور في العلوم السياسية -سليمان الرجاج -الملقب بابن البشلوق - أُقرُ وأعترف بأنني تنقلت بين الأحزاب كلها يمينها ويسارها.. قومي ومادي ومتدين.. وكنت فيها نشيطاً ومعطاءً، ذهبت أعمارنا قبل أن أكتشف غبائي.. لقد خسرنا كل شيء.. كل شيء..

أنا الدكتور سليمان أعترف بأن كل سلطة وكل جماعة أو حزب في الشرق تتعامل مع الرعية: كالبشلوق

أنا الدكتور سليمان أعترف بكنيتي ولقبي:

سليمان البشلوق. .

البصبوص

(سعد دبح -١٩٥٧)

السماء رصاصية اللون، والهواء ساكن..

عصافير الدوري الصغيرة تتقافز مضطربة قبل الغروب كي تهرب، الصقيع قادمٌ، وبقايا أوراق الأشجار الباهتة تلتف على نفسها فوق الأغصان إيذاناً بالسقوط، وكلٌ على عجلٍ كي يستتر خلف الجدران، فالمساء الذي يوشك أن ينسدلَ يُنبئ بتجمّد كل شيء..

ذاك المساء البعيد كنت أحمل طبقاً صغيراً مملوءاً بحبات التمر البني الحلو إلى جدّي الذي يسكن مع جدّتي وحيدين في ذاك البيت الطيني الواسع والدافئ، وهناك آثرت البقاء.. شيءٌ ما يشدّ الأطفال كي يبيتون مع الجدِّ والجدّة.. شيءٌ ما مجهول ولكنّه ظريف وممتع؟..

قال لي الجدّ: تسلم إيديك يا جدو.. خليك عند ستك، وأنا ذاهب إلى عند جاري «يونس» فهو محتاجني في أمر ضروري.

قالت جدتي: لقد غابت الشمس، تعال نم جنبي فالليلة زمهرير وقد حلَّ -سعد دبح -

التصقت بجدتي وقد داخلني الخوف من هذا الرجل - كما أظن - والذي اسمه سعد، لماذا يأتي؟.. ومن سيذبح؟.. ولماذا؟..

قلت للجدة: متى سيأتي؟..

قالت: يأتي كل عام.. يبقى اثني عشر يوماً ونصف، يجلب معه البرد والثلج ويموت بسببه خلق كثير.. وتنقطع السبل بالبشر والحيوان.. وتُهدمُ بيوت وتنقطع أرزاق..

قلت لها: احكي لي حكاية أخرى، لماذا أنتِ ضريرة وبصرك ضعيف جداً؟..

قالت: كنتُ أجمل فتاة في المنطقة، سمراء تعشقها النواظر وتتيه فيها القلوب.. اسألْ جدّك، كيف تاهَ بي عشقاً وولهاً، كان يمشي كل اليوم إلى قريتي البعيدة ويتعب كي يراني لحظةً، أو يسمع مني كلمة..

تزوجت جدّك وأنجبت فتاةً وولداً.. كبر الصبي وصار شاباً وأخذوه يا حسرتي.. أخذوه في – سفر برلك – على الجيش التركي.. وما عاد رجع، ومن كتر ما بكيت عليه ضعف بصري وصارت الغشاوة سميكة، وراح -بصبوص- عيوني..

رجع جدي إلى البيت قائلاً: ستموت البقرة من البرد، وينتهي مصدر رزقنا إن أبقيناها حتى الصباح، لماذا لم تشعلوا – البصبوص –

قالت الجدّة: أنا لا أرى.. والغلام لا يعرف..

أشعل جدي عود ثقاب وذهب إلى صحن فخارٍ وضع به زيتاً وقطعة قماش رفيعة سمّاها فتيلاً وضعها في الزيت وأشعلها، وعلى ضوء البصبوص أدخل البقرة وربطها في الركن البعيد من الغرفة الواسعة خلف الساموك الكبير، ثمّ قال لي: عليك أن تتعلّم كيف تصنع البصبوص وكيف تحمله معك..

(سعد دبح ١٩٨٤)

عرفته في يوم عاصف. كان الشتاء قاسياً، انتقلت قطعتنا العسكرية إلى منطقة مهجورة في البادية، نصبنا خيماً ونفضنا الثلج عن فرشنا وأثاثنا البسيط، هبط الظلام ولمّا ننتهِ، ولم يكُ ثمة ضوء أو شمعة أو قنديلٌ..

قلت لأبي شحّود: اعمل بصبوصاً..

نظر إليّ مبتسماً وعمل سراجاً وضع فيه فتيلاً وقليلاً من المازوت وأضاء الخيمة..

قال مازحاً : هل أعجبك البصبوص؟..

كنت أخدم احتياطاً.. وكان هو متطوعاً صفّ ضابط، تطوّع كما قال هرباً من واقع لا بصيص أملٍ به ولا ضوء..

وقال بعد أن وثق بي: الضوء هنا -وأشار إلى رأسه - واكتشفت أنّه يقرأ كثيراً وصاحب ذاكرة وفطنةٍ ومتحدثٌ لبقٌ ذو حجةٍ مقنعة، يجادل في الشعر وفي الفنون

وتاريخ.. (الثورات) ودائماً ينهي حديثه بالإشارة إلى رأسه: الضوء هنا، في العقل، ثمَّ أشار إلى فوهة البندقية: وهنا أيضاً..

تعمقت صداقتي مع أبي شحّود، تحدثنا في العمق.. في الممنوعات وفي المحرّمات.. وضوء البصبوص الذي في نهاية الأحزان والذي على سارية السفن المهاجرة والضوء المرسوم في كتب الأذكياء والأفق الذي قد يأتي..

انتهت خدمتي في الجيش وبقي هو..

ودّعته حزيناً وقلت: سأذهب إلى بيت أهلك، أسلّم عليهم وأحمل لهم سلامك..

قال لي بحسرة: لا، لا تذهب قد يراك أخي ويذبحك لأنّك على غير مذهبه.. وقال بهمس: هو الشيطان بعينه، أرجوك لا تذهب، إنّه أخي سعد الذابح..

لم أرَ أبا شحود.. صار شهيداً في جنوب لبنان.. في ليل شتاءٍ قارس لا ضوء فيه سوى ضوء متقطّعٍ من فوهة بندقية أبي شحّود. .

(سعد دبح -٢٠١٨)

نحن الآن في أيام سعد دبح.. لا بردَ.. ولا ثلج ولا صقيع.. لا مطر ولا رياح شمالية ممزوجة بجنون الطبيعة، السماء صيفية اللون، والشمس في حرارة حزيران، والمساحات الشاسعة قفراء قاحلة، وهذه الحرب اللعينة لم تُبقِ أحداً من السكان في مزارعهم، والليالي ترخي بسوادها المقيت على آلاف القرى التي هجرها ساكنوها، وأضحت خراباً في خراب.. لا يضيُء فيها ضوءٌ أو ينوس فيها.. بصبوص

الزلطي

تتشابه أحلام اليقظة لدى الفتيان.. وقليلاً ما يكفّون عن الحلم..

يحلم الفتى أن يلبسَ جناحي نسرٍ ويحلِّق من هناك، من قمّة الجبل العالي.. إلى هناك، للفضاءات البعيدة.. فوق الغابات والسهول.. فوق القرى التي لم يألفها نظر. .

لكنّه يريد أن يعود إلى بيدر ألعابه وأسطح البيوت في الزقاق الضيق حيث هو الآن..

يحلم الفتى الواقف على شاطئ البحر أن يركب سفينة إلى البعيد، إلى هناك.. حيث لا أرض ولا شجر، بل أزرقين، ماء وسماء..

لكنّه يريد بعدها الرجوع إلى مرتع الطفولة.. هنا حيث شجرة التين الكبيرة، والركض خلف السحالة، والتلصلص على حديث العجوز الساكنة مع دجاجاتها العشر..

يقول الزلطي- الرجل السبعيني - للفتى الذي زاره مع رفيقه:

وكنّا في مثل عمركما نحلم بأشياء كثيرة، بالتدخين مثلاً، والإقدام على تقليد الكبار في حمل الثقيل من الأشياء، ونحلم دائماً بالجديد، بكل ما هو جديد..

:وأنت يا زلطي، سافرتَ وحقّقتَ حلمك؟..

:نعم يا أحبائي سافرت.. كنتّ شاباً، وكان الفقرُ يلبسُ قريتنا، والأرض الضعيفةُ لا تطعم خبزاً، وكأنَّ البؤسَ والمرض نتوارثه عن الأجداد، كل شيء كان بائساً.. الطعام واللباس والبيوت، وفراغ الوقت واليدين..

بعد الحرب الكبرى، انهزم الترك وجاءت فرنسا، وبعد سنتين، في العشرين من عمري كانت تستقبلنا بيروت.. المدينة التي كانت محطةً للهاربين من القحط والعوز إلى مدن الأحلام وراء البحر.. وصلناها بعد أربعين يوماً، سائرين على أرجلنا أو راكبين أحياناً فوق الطنابر[8]..

---

[8] الطنابر: عربات خشبية تجرها الخيول..

كنّا ثلاثة من القرية، دخلنا الميناء واختلطنا بالعشرات ممن يبحثون عن العمل، ثمّ جمعنا أحدهم ليختار منّا من يعمل على سفينته، كان يريد أقلّ من عشرين رجلاً، فتدافعنا وتزاحمنا وضرب بعضنا بعضاً، غادر السيّد ولحقناه إلى - وابوره - وهناك قال: من يريد ان يعمل بأكله وشربه فقط فليصعد إلى السفينة، وهكذا صعدنا نحن الثلاثة من قرية واحدة، وأبحرنا وصار الوابور بيتنا العائم، ومجال عملنا، ومطعمنا الجديد..

قال الفتى نائل متسائلاً: وماذا عملت فوق السفينة؟.

قال الزلطي: سألني المعلم: هل تعرف أن تصبغ بالألوان؟. قلت: بلى.. لقد صبغت مرةً خراف القرية بالأحمر، وخراف- الشوباصي[9]- بالأزرق..

وهكذا حملت سطلاً فيه صباغٌ وفرشاةٌ، أنزع الصباغ التالف وأصبغ جدران السفينة بصباغ بني آخر..

: وكان أجرك طعاماً إذاً.. ماذا أكلت؟..

الزلطي: أكلتُ رزّاً، أول مرّةٍ أكلتُ رزاً على ظهر السفينة فوق ألواح الخشب الذي تحمله..

: وهل أكلت لحم الخنزير؟..

الزلطي: لا لا، ولكن الأرز كان مطبوخاً بمرقة لحم الخنزير..

ولماذا تركت العمل في البحر يا زلطي؟..

اسمعوا بعض الحكاية:

المشهد الأول:

مرّةً تعلّقت باللوح الخشبي الذي يتدلى خارج السفينة في جانبها الأيمن، قريباً من سطح الماء، كان لزاماً عليّ العمل من الصباح إلى المساء، أكشط الدهان المتشقق وأصبغ بدلاً عنه صباغاً جديداً، وعند الظهيرة رأيتُه يفتح فمه ويقفز نحوي، كان سمك القرش حول السفينة، كان منظراً مرعباً، تسلّقت الحبال هرباً من الوحوش التي تسبح، وقد بانت

[9] الشوباصي: وكيل الإقطاعي في منطقته.

أسنانها من فمها الذي إن سقطتُ فيه سأكون لقمةً واحدةً له، وفي المساء كنّا قد فقدنا رفيقنا موسى الذي كان يُجدّدُ الطلاء في الجانب الآخر للسفينة.. لقد غاب إلى الابد في جوف إحدى أسماك القرش.. لم يعنِ اختفاء موسى أي شيء للقبطان وأعوانه السفلة.. عمل كي يحصل على طعامه، فأضحى هو طعاماً لسمك القرش.. مات رخيصاً. .

المشهد الثاني :

موانئ البحار كلها متشابهة، بواخر، تدخل وتخرج تفرغ حمولتها وتمتلئ بأنواع أخرى، والبحّارة الذين لم يروا اليابسة منذ أشهر عديدة، يفرغون ماعندهم في الموانئ، المرافئ تعني التهريب والخمور وتجارة الممنوع، وتعني للبحّارة الانتقام من زمن ضاع على سطح المحيط، وأنا الزلطي لم أكن أملك شيئاً، لكنني رأيت قائد السفينة يصطحب امرأتين حين غادرنا الميناء، وكنا نسمع كل مساء الغناء والرقص على سطح السفينة، ونحن في أسفل العنابر لا يسمح لنا بالصعود ليلاً.. وبعد أشهر طويلة وقبل أن ندخل ميناءً جديداً في بلد جديد لم نعد نرى أثراً للمرأتين.. لقد غابتا كما غاب موسى.. !!!

المشهد الثالث

قبل آخر دخول للميناء وعلى مقربة من المكسر -الرصيف- أنزل القبطان وأعوانه قوارب النجاة وحملوها بصناديق لا نعرف ما تحتوي، كان الوقت ليلاً وأكثر البحّارة نائمون، وإذا بالنيران تشتعل في الباخرة وتضيء السماء تلك الليلة، عندها قفزت أنا وسبحت حتى وصلت الرصيف، وهناك أُخذتُ إلى سجن المدينة وبقيت عاماً كاملاً، ثمّ رجعتُ في باخرةٍ أُخرى، وأهوال خطرة في رحلة العودة امتدت سنتين وبضعة شهورٍ..

قال نائل: ولكنك يا زلطي عشت فقيراً ولم تجنِ شيئاً..

الزلطي: كان خياري الموت في وطني وهذا أفضل من أن يلتهمك سمك القرش، وتعيش في عالم لا يرحم، أو تضيع في سجون لا تعرف لغة السلام فيها..

السبيل أمّ شامة

فضاؤُه واسع.. وسع المدى.. وسع الأحلام..

هو السرّ الذي يبقى سِراً، لغته في العيون وفي تورّد الوجنات الخجلى، الحب هو الجوهر وهو لب الأشياء وجوهرها، وهو ناموس الحياة كما قال جدُّنا الكبير حين سأله أحد المراهقين:

هل أحببت جدّتنا؟.. احكِ لنا قصة لقائك مع ستي..

وحين قال مراهقٌ آخر: كانوا ملاعين يعشقون أكثر من واحدة..

أضاف الجدُّ: وهل تمضي الحياة بدون حب؟..

اسمعوا يا أولاد:

كان في قريتنا رجلٌ حكيمٌ ورعٌ متعلّمٌ مشهورٌ في البلدات القريبة والبعيدة، وله أصحاب كثيرون، أحد أصحابه من قرية بعيدة أرسل ولده الشاب إلى الحكيم، كي يعلمه القراءة والحساب وأصول الأدب والدين، والشاب كان فقيراً، ذاق طعم الألم، ومرارة السفر حتى وصل إلى الحكيم، وأقام عنده يعمل ويتعلم، كان الشاب ذكياً يحفظ كثيراً ويستوعب الدروس بسرعة ومهارة، وبعد انتهاء الثلاثة أشهرٍ المخصصة له وفي ليلة الرحيل، جاء الحكيم ووضع ليرةً ذهبيّةً - هي كل ما يملك - قرب فراشِ القَش الذي ينام عليه الشاب ومضى إلى غرفته..

عند الفجر قام الحكيم، توضأ وصلى، وحين انتهى لاحظ أنّ الشابّ يقف أمامه ويمدّ يده:

يا عمي لم أنم طيلة الليل.. سهرت حتى تفيق، رأيت هذه الليرة قرب فراشي..

قال الحكيم: هي لك، أنت لقيتها.. حسناً، تكفيك كي تبني منزلاً لك..

قال الشاب: هذه ليست لي، وأنا أبني منزلي من تعبي. .

قال الحكيم: كان بإمكانك إخفاؤها والسفر؟..

قال الشابّ: من فقدها أولى بها، لقد أضاع من عمره وأنا إن أخذتها سيكون صاحبها في بؤس وهذا لا أرضاه..

قال الحكيم: اذهب إلى أبيك وارجعا معاً إليّ فقد قررت أن أزوّجك ابنتي الصبية، لقد اخترتُ فيك الذكي العصامي الأمين..

هذا الشابّ يا فتيان هو جدي الذي ولد عام ١٨٠٠، والذي تزوّج جدتي فاطمة (أمّ شامة)، والجدة كما تقول هي إنها كانت أجمل الصبايا وأحلاهن، والتي ذاع صيت رونقها في سائر البلدات كما تروي متباهيةً، وثمّة شامة على وجهها الأبيض الجميل المورّد.

لم تُرزق جدّتي سوى بابنةٍ واحدة كانت تضاهي أمها جمالاً وحسناً، وأسمتها (كوكب) لأنها تضيء كالكوكب في سماء الصيف، ولكنّ القدر كان بالمرصاد لكوكب.. للصبية.. الحسناء اللطيفة.. لقد مرضت ثمّ ماتت..

بكى عليها الجميع ولبست أمها السواد وأقسمت أن لا يدخل مشط في شعرها ولا تمشّطه مادامت حيّةً. .

وفي أحد الأيام ذهبت فاطمة إلى - عوّاد - المعمرجي - قائلةً:

يا عوّاد، خذ نصف كرم التين الذي ورثته وابنِ لي سبيلاً على روح كوكب..

وافق عوّاد وذهب يقطع الحجارة الرملية من مكان بعيد، وينقلها إلى مفرق القرية، وبنى هناك سبيلاً طوله ذراعان، وعرضه ذراع، وارتفاعه أربعة أذرع، وفي منتصف الواجهة ثلاثة تجاويف حفر في أحجارها الصخرية الملساء (جرون) للماء، وفوق السبيل شاهدة كتب عليها ثلاثة أبيات من الشعر:

هذا سبيلٌ بَنَتّهُ فاطمة أم كوكبُ.. على روحها قد حلا الماءُ والشربُ

ولقد نسيت يا أولادي بقية الأبيات..

وهكذا صارت فاطمة تنقل الماء على دابتها صباح كل يوم من - عين ماء ركيّه -وتملأ السبيل فيشرب منه العابرون القادمون من القرى البعيدة، ومن تركيا، والذاهبون إلى اللاذقية، وإلى الحج والعمرة، وأصبح السبيل مكاناً للتلاقي والتعارف واستراحةً للمتعبين من السفر، ظلّت فاطمة تملأُ السبيل طيلة حياتها حتى ماتت، ثمّ جاء بعدها من تابع فعل الخير، وأصبح السبيل رمزاً للقرية ومعنى للارتباط بالأرض..

قال الحفيد الخامس للجدِّ أبي فاطمة:

تناثرت حجارة السبيل، ثمّ جاء جنود غرباء، صاروا يبحثون في هويات الناس الذين ارتبط وجودهم مع وجود السبيل، والذي كان رمزاً للخير والتعارف والتعاون، صار مجرّداً من المعاني النبيلة، تتلاقى عنده نظرات الغرباء الخالية من الأحاسيس..

- النظرات البلهاء التي أفرزتها الحرب اللعينة

أصبحنا غرباء، ألا ما أصعب الغربة في الوطن..

السيّدة الجمجمة

هي كلمةٌ واحدة..

كلمةٌ واحدة، يتّسع أفقها.. تتمدّد.. تُشكّل فضاءً.. كوناً.. عالماً لذاته، عالمٌ رحبٌ.. عميق.. مبهم وطري.. صافٍ ومخيف.. جذّاب ومراوغ..

ماذا يعني البحر؟..

هو كالحب.. كالحريّة.. كالفرح والشوق.. وهو الألم والتحدي.. هو الشيطان بلغتهِ وغدرهِ وإغراءاتِهِ.. وهو حبل طرفاه نقيضان، أملٌ وألم..

وللبحر موسيقاه ولغته، بل لغاته، وإشاراته لا تحصى.. يرسل إشاراته للطفل وللكبير.. للعاشق والمسافر.. للحالم وللصياد..

(شدوان) الفتى ناداه البحر: صورتي جميلة ومائي دافئ وظهري متعة للركوب.. رملي نظيفٌ وحصى الشاطئ.. وأمواجي تتهادى كالنفس الهادئة.. كالأحلام الجميلة.. أنا رياضتكَ وساحة الألعاب النشطة..

(شدوان) لا يعرف السباحة.. حاول كثيراً ولكنه لم يتعلم.. حاول تقليد أقرانه الذين يسبحون ولكنه فشل مراراً، كان يكتفي باللعب في الماء وعلى حصى الشاطئ ولم تنتهِ محاولاته التالية في تعلّم السباحة، كان رفيقه آدم يشجعه دائماً ويأخذ بيديه إلى أن قال له:

شدوان، نم على ظهرك كأنك على الفراش.. انسَ إنّك فوق الماء، استرخِ تماماً.. ابدأ الآن.. استلقِ على يديَّ، لا تخف..

بدأت المحاولة الأولى والثانية وتتالت المحاولات..

نعم هكذا نم يا شدوان ودع الماء يحملك.. لن يجذبك الماء إلى القاع.. نعم هكذا.. هكذا جيّد.. أصبحت تعوم على ظهرك.. رائع، لا تخف الماء ليست عميقة..

في ذلك اليوم أحسّ شدوان بالانتصار والفوز، لقد تعلم السباحة مستلقياً على ظهره وبدأ بتحريك يديه كالمجداف والعوم بمفردهِ.

في أيامه القادمات كان مسروراً وهو يتطور في السباحة مستلقياً على ظهره، كان يكتفي بهذا النوع من السباحه إلى أن أتى اليوم الذي لامست يده وهو يعوم شيئاً صلباً، شيئاً يشبه الكُرة، لهُ حافّة جارحة، قبض عليها شدوان وسبح إلى الشاطئ ونظر إلى

الشيء في يدهِ فإذا بها جمجمة!!.. جمجمة عظميّة لإنسان لفظها البحر حتى صارت في قبضة شدوان، تأمّلها بشيءٍ من الرهبة والخوف، ثمّ لبس ثيابه وحملها بين يديه وقفل راجعاً.

على طريق العودة رآه بعض المارّة، فنظروا إليه باستغراب وبعضهم تساءل: ما الذي يحمله هذا الأبله المجنون؟..

ثمّ صادف في طريقه امرأةً وصبيّة معها قالتا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأسرعتا مبتعدتين..

وكل من صادفه يستهجن حمله ويتمتم ثمّ يمضي، وشدوانُ آنس ما يحمل، سعيداً بما يسمع من تعليقات وردّات فعل، حتى لقي رجلاً كبير السن، في بستان له مجاور للطريق قال له: يا بني أنصحك بدفن الجمجمة، ثمّ أعطاه معولاً ورفشاً طالباً منه أن يتركهما في المكان حين ينتهي..

وهكذا حفر شدوان عميقاً كما قال له الرجل، ودفن الجمجمة وأهوى عليها بالتراب ردماً، وجلس يرتاح من تعب السباحة والطريق وحفر القبر ودفن الجمجمة، فأخذه النوم وغفا..

وكأنّ شيئاً جعله يقوم من رقاده فإذا برجل فوق القبر يجلس وينظر إلى شدوان..!! قال شدوان وجلاً:

بسم الله، مَن أنت؟..

قال الرجل: أنا صاحب الجمجمة وأنا لك من الشاكرين..

ارتعب شدوان وهمّ أن يقوم فلم تسعفه قواه، وهمّ أن يقول شيئاً فلم تنفرج شفتاه.. بل زاد اضطراباً وخوفاً..

قال الرجل: لاتخف.. لا تخف.. اهدأ

قال شدوان: من أنت، ما حكايتك؟!..

قال الرجل: أنا قتلني علمي. .

قال شدوان: كيف؟..

قال الرجل: أنا رجلٌ مولع بالعلم، حياتي كلها بحث وتدقيق.. كنت شاباً فحببت أن أدرس خفايا نفس الإنسان، وما يحدث من تبدلات في السلوك وما يطرأ على النفس من صفات التحول إذا مرض الشخص، وصرت أداوي الناس، والناس تثق بي وازدادت

شهرتي حتى وصلت إلى الحاكم، وكان لديه شابٌ مُضطرب العقل وذو سلوك عصبي، فاستدعاني الحاكم لتطبيب ولده، وكان لا بد من الذهاب..

كانت خطتي في المعالجة تبدأ من البساطة، وتعتمد على الماء الساخن والتدليك، وعلى الأطعمة الخاصة التي أعرفها، وهكذا كنت أجلس ساعات وساعات وأنا أفرك قدمي المريض بالماء الساخن وبعض خلاصات الورد، واسقيهِ عصائر بعض الفاكهة، وأحكي له قصصاً أختارها بعناية، تبهج نفسه المتوترة، بدا التحسن على المريض واضحاً ولما عرف الحاكم أنني بدأت العلاج بالماء الساخن، أمرني أن أغسل قدميه كل يوم، وصرت أجلس بين قدميه أيضاً ساعات طويلة، ثم طلب أن أغسل قدمي زوجته ثم ابنته ووزيره الأول، وبعد ذلك عشيقته بشكل سري، وهكذا تواصل ليلي بنهاري وأنا أغسل الأقدام منتقلاً من قدم إلى قدم، وأنا في حضرته لا أستطيع رفض أي طلب، وانقطعت عن الدرس والبحث سنوات طوال، وصارت مهنتي الدائمة غسل اقدام الحاكم وحاشيته، والحاكم الذي جاء بعده وأحفاده وحاشيته ايضاً.

ثمّ مرّت أوقات أراد فيها رئيس الحرس أن يذهب في رحلة بحرية، فأخذني معه، وفي وسط البحر أوقفني ليلاً على حافة السفينة، وقبل أن يرميني قال: هذه وصية الحاكم، بأنك أصبحت كهلاً، وإنك تعرف سر قدم الحاكم اليمنى التي هي دون أصابع..

اعلم يا بني: إنّ العالم يفقد علمه وأثره في بلادٍ يحكمها الجاهلون..

قال شدوان: اختفى الرجل فجأةً وظهرت مكانه فتاة حسناء كالبدر فشهقتُ خوفاً ووجلاً وقلت: بسم الله، من أنتِ؟!..

قالت: أنا السيدة الجمجمة، لا تخف، اهدأ، وإليك حكايتي..

الضرّابة

الزاد قليل، والحكايا كثيرة

الزاد قليلٌ في الشتاءات الطويلة، والتوق إلى حكاياها يتجدد في الأمسيات حول (الكانون)[10]..

تبدأ الجدّة حكاياها بالصلاة على النبي وحمد الله على نعمه وعلى وجودنا في هذا البيت الدافئ، صحيح أنّه مبنيٌ من الخشب والقش والطين، لكنه يقينا من البرد والثلج الذي تغوص فيه الأرجل حتى الرُكب..

كانت الجدّة في السبعين من العمر، تفتخر وتذكرنا في مستهل الحكاية بشيئين:

جمالها الأخاذ في صباها وتنازع الشباب على خطب ودها، وحسد الفتيات على فتنتها ورونقها.. وتعتزّ بنسبها الذي يوصلها إلى جدّها المؤمن مؤسس العشيرة..

تقول حكاية الليلة أنّ الجدّ السادس لها منذ أربعمائة سنة قد (غطّ)[11] في أواخر حياته أي أنّه نام طويلاً لا يحسّ بمن حوله ولا يفيق من النوم، وهذه الحالة تصيب بعض الرجال فينامون ربما أياماً أو أشهراً، وربما سنوات، وغالباً يموتون بعد ذلك، ولعل بعضهم يفيق من النوم ساعات أو أياماً، ويقص ما جرى له حين كان جسده قد (غطّ)..

أمّا (رمضان) جدها السادس فقد استفاق بعد أشهرٍ من غطّته لمدة يومٍ ونصف قبل أن يموت، ففرحت القرية حين استفاق وعادت إليه الروح والذاكرة، وعرف زوجته والأبناء وكل القرية..

سأله شيخ القرية: أين كنت يا شيخ رمضان؟..

قال الجدّ: كنت مع الضرّابة.

كبّر الحاضرون وهللوا: لا يمشي مع الضرابة إلا المؤمنون..

---

[10] الكانون: موقِد صغير من الطين يشعل فيه الحطب للتدفئة أيام الشتاء..

[11] غطّ في النوم، هو نتيجةٌ لما يعرف الآن - الجلطة الدماغيّة-

سألنا الجدّة التي افتخرت بإيمان جدها مراراً: من هم الضرابة؟.

قالت: هم الذين يضربون في الأرض، رجال مؤمنون لا نراهم، لهم حرية الظهور بين البشر ولهم حرية الاختفاء، يمشون في الأسواق ويدخلون البيوت والقصور، يراقبون البشر، وإذا أُذِن لهم تدخلوا وحلّوا معضلةً أو عاقبوا معتدياً..

قال رمضان: سرتُ مع الضرّابة، لا نجوع ولا نعطش، إن أحببنا شيئاً أخذناه بيسر، وإن أعجبنا موضع أقمنا به، نضحك على تصرفات الناس المضحكة، ونبارك عمل الأذكياء، ونطلب الرحمة والعون لأصحاب القلوب البيضاء..

وآخر مكان زرناه قصراً في بلاد الهند لملكةٍ يحبها شعبها، ملكة غنية العقل والمال، ملكة ذكيةٍ وجميلة. بعد أيامٍ من وصولنا عرفنا أنَّ وفداً لسلطانٍ شديد البأس ملك الأقاليم، وبلاداً تمتدُّ إلى بلاد الديلم والعجم وإلى ما بعد النهرين حتى وصلت أملاكه إلى الصحارى والبحر المحيط..

طلب الوفد من الملكة أن تذعن للسلطان القوي وأن تُسلمه البلاد دون حرب.

كانت الملكة تسمع بالسلطان القوي وتعرف أنّه أقوى ملوك الزمان، لكنّ الملكة قالت للوفد: الملكة لا تفاوض إلا ملكاً، عليه أن يأتي إليّ بنفسه..

رجع الوفد صاغراً، فأرسلت الملكة رجلاً موثوقاً وذكياً ليعرف عن قرب ردّةَ فعل الملك ويعرف أحواله..

رجع الرجل إلى ملكته قائلاً: هذا الملك لا طائل له، شديد غليظ، متكبر، قوي، ملأه الغيظ من ردكّ عليه، ويرغب أن يعرف مصدر كبريائك..

قالت: صفهُ لي؟

قال: ملك ولا كل الملوك، مهيب الحضور، قوي الشكيمة، ربعٌ من الرجال ذو خدشٍ على جبهته إثر ضربة سيف، معقود الحاجبين..

قالت الملكة: حسناً، عمّا قريب سيأتي إلينا..

وهكذا صارت الملكة تقضي أيامها على شرفة القصر، إلى أن أتى الملك متنكراً بصفة شحاذ يتسول وهو يدور حول القصر..

عرفته الملكة من أوصافه، فأوعزت إلى حراسها: ضعوا هذا المتسول في السجن واقطعوا عنه الماء والطعام، وراقبوه..

مضت عدة أيام وجاء بعدها الحارس يقول: لقد أنهك الجوع والعطش ذاك السجين وخارت قواه..

نزلت الملكة إلى قاعة كبيرة، فيها طاولات واسعة، على إحداها سلال من الذهب، وعلى الأخرى أكوام من الفضة، وعلى طاولة ثالثة الأحجار الكريمة التي تبهر، وعلى الأخرى النفائس من الصناعات والتحف، وفوق طاولة صغيرة كسرات خبز وشربة ماء.

أدخلوا الملك الأسير إلى القاعة وقال له الحارس: اخترْ طاولةً وخذ ما عليها هديّةً وملكاً لك..

دار الرجل في القاعة، وحين رأى شربة الماء انقض عليها وأفرغها في جوفه، وصار يلتهم كسرات الخبز الجافة..

أتتْ الملكة إلى السلطان قائلةً: تركت الكنوز والذهب وهرعت إلى شربة ماء وكسرة خبز!!

قال السلطان: أيتها الملكة، الآن عرفت إن الحكمة تغلب القوة والعظمة.

رجع السلطان إلى بلاده وتخلى عن المملكة وأقطارها، وعاش زاهداً في الدنيا، سائحاً، فقيراً حتى وصل إلى ضيعتنا ومات بها، وقبره ومقامه تحت شجرة الريحان الكبيرة، جانب قبر جدي السادس - رمضان - وشاهدة القبر مكتوب عليها:

كل كنوز الأرض لا تساوي كسرة خبز وشربة ماء

وعلى شاهدة قبر جدي - رمضان -

الحكمة أساس المُلك

الغميضة [12]

(أحلام صغيرة)

هي جميلة.. سهلة.. ممتعة.. ينشط فيها الخيال.. تعلم الصمت والتمويه.. الكل يلعبها.. أينما كانوا ومتى.. عابرة للأزمنة والأوطان.. لعبة الغميضة لغة أخرى.. لغة مشتركة بين أطفال العالم.. لغة سلام لا عدوان فيها.

الطفلة فاطمة تتقن اللعبة.. تجيد التخفي عن الأطفال.. تبتكر أساليب في الاختباء، تجعل الباحث في مشقة حتى يراها.. تختبئ أعلى شجرة الحور، أو تلف نفسها في الحصير، أو تحت فستان أمها الجالسة.. وإذا جاء دورها وأغمضت عيناها واختبأ الآخرون فمن السهل أن تكتشف وبسرعة أماكن اختباء الأطفال..

بعد المدرسة في كل يوم تجتمع مع الأطفال في لعبتهم.. تمضي الفصول والسنوات لا يبعدهم الحر ولا ايام الشتاء الباردة عن لعبة النشاط (الغميضة)..

كان الفستان الطويل هو من يعيقها في الركض والحركة.. ودت وطلبت لو تلبس بنطالاً مثل الأولاد، لكن الأم رفضت بإصرار طلبها: هذا لا يجوز.. هذا حرام..

كانت البنت الوحيدة بين الأطفال الذكور الذين يلعبون.. ومضت الأيام حتى أصبحت في الصف الخامس حين قررت الأسرة أن تنسحب فاطمة من المدرسة مثل بقية بنات القرية..

عاندت الطفلة قرار الأهل دون جدوى، ومنع اختلاطها بالأطفال، فقد أصبحت في التاسعة من العمر، وهذا السن هو المحدد للانفصال عن الذكور..

حاولت الطفلة الاختلاط مرات كثيرة.. كانت تهرب لتلعب الغميضة، وفي كل مرة كانت تنهال عليها السياط، كانت تضرب بقسوة وعنف إلى أن انقطعت تماماً..

---

[12] الغميضة: لعبة للأطفال يغمض فيه الطفل عينيه فترة ويختبئ الآخرون وعليه أن يجدهم.

لكن الطفلة صارت تصعد إلى السطح وتتسلق جدار الحوش[13] وتتفرج على اللاعبين بشوق وحسرة.. ومضت سنوات أضحت الطفلة صبية في الخامسة عشر، وصار لزاماً عليها أن تتزوج حسب نصيحة شيخ القرية، التي تفتي بتزويج البنات وهن صغيرات درءاً للمفاسد..

وهكذا تزوجت فاطمة وانتقلت إلى بيت ولدت فيه أربعة بنات، ولم تبلغ العشرين من عمرها.. ثم طلقها زوجها إذعاناً لرغبة أمه التي ارتأت تزويجه لأجل إنجاب أولاد ذكور..

مضت سنوات أصبحت فيه بنات فاطمة في المدرسة، ورأت نفسها ذات نهار مع عائلات كثيرة (زمن الحرب والهجرة) تحمل صرة ثياب وتجر بناتها وراءها في هجرة فرضت عليها..

وفي بلد آخر بعيد استقرت به بعد رحلة عذاب شاقة، كانت تجيب من يسألها عن بناتها فتقول: هنا أستطيع أن أرسلهم إلى المدرسة دون انقطاع، ويستطعن لباس البنطال دائماً، وأن يلعبن مع الأطفال الذكور بكل الحرية: لعبة الغميضة.

[13] الحوش: الدار، له ساحة مسورة.

القاشوش[14]

عاش القاشوش.. عاش.. عاش.. عاش

إلى الأبد.. عاش.. عاش.. عاش

هو الملك..

هو اللعبة.. الخطرة

هو القضيّة والمحور..

وهو الذي يقِشُ الأعداد: الواحد والاثنان والثلاثة والأربعة..

ويقِش الألوان كلها.. الأبيض والأزرق ولون الدم..

وهو الذي يجمع الجّد الختيار وبنت الكبّهْ.. ويلحس ما يشاء من أسفلها..

وهو ابن جارنا وصديقنا وابن البلدْ؟..

القاشوش: السند والمرجع.. حاضرٌ في المرافئ، وأسواق الهال، وفوق صوامع الحبوب.. ومحافل السلاح، وبازارت النفط، وإيرادات الحبوب المخدّرة.. وفي حدائق الحيوانات وساحات قتال - الديوك - وهو قوي، قطع بإرادته رؤوس ثلاثة من العلماء، لأنهم لم يصفوا الماء كما وصف أسلافنا (بالعذب.. والفرات.. والزلال..) بل قالوا عن الماء بأنّه-- H2O -

مشغول ليعرف كيف تبيض (النعامة)، ومشغول بوزن ثياب الراقصة الغجرية التي ألهبت حماس الجماهير، (وبالثآليل) التي ظهرت على مؤخرة الحسناء سفيرته إلى(واشنطن)

سألت ُ جدّتي يوماً: لماذا اسمك مثل اسم العصفورة الجميلة (دنورة) وأمك (حمامة) وأختك (حسونة)

---

[14] القاشوش: هو الورقة التي تتغلب في اللعبة على بقية أوراق اللعب، وقد كنتُ أنشدُ شيئاً آخر من الحكاية، ربما أفصح عنه يوماً ما..

قالت: نحن جميلات مثل الطيور وأجمل، وكذلك خالتي (غزالة) وأمها (ريّا) حلوتان وجميلتان كالغزالة.

قلت: احكي لي عن القاشوش..

قالت جدتي (دنوره): لم يرَ أحدٌ القاشوش، وقالت: إنّه في زمن بني العباس كان يكتفي بقشِ الجواري الكواعب الحسناوات، وقد ضاعت من القاشوش مملكته الواسعة لأنه باعها واشترى بها حسناوات البلاد البعيدة..

وقالت لها أمها (حمامة): أنا رأيت القاشوش الصغير (اليوز باشي[15])، كان يأتي كل موسم حصاد، يقشُ القمح ويأخذه للسلطان قاشوش، وقد قطعتْ حمامة مرّةً طريقه، ولكنّه ضربها بعصاه وقال: عجوز.. بجم[16].. عجوز.. بجم..

فتحت مريم العجوز فستان صدرها: الله يلعنك ويلعن تاريخ ميلادك ويلعن القاشوش الكبير..

و(حمامة الحفيدة) بعد ثلاثين سنة وقفت يوم عيد الأم خلف شبكٍ حديدي غليظ في سجن جبلي حديث وقالت للمساعد الذي يراقب زيارتها لابنها السجين:

«الله يخليك يا ابني خليني حط ايدي في يد ابني، صار لي ثلاثة سنين ما شفته»

قال لها: يا عجوز النحس، كيف ولدتِ هذا الحيوان؟

قالت له: «روح الله يلعن البطن اللي حملك.. الزمن الماضي كان القاشوش ياخد الحنطة، وهلق بتاخدوا الخيرات وتسجنوا الرجال، ولك تفوه عليك وعلى القاشوش تبعك».

قالت (دنورة) الحفيدة الخامسة لـ (دنورة) الأولى وقد ساقوا أولادها الثلاثة إلى الحرب وماتوا فيها:

«أيام زمان كانوا ياخدوا الخيرات وبعدين صاروا يسجنوا الناس وهلق صرنا حطباً للحرب، روح الله يلعنك يا القاشوش اللي وراء البحر المحيط، ويلعن قواشيشك كلها..»

---

[15] اليوز باشي: رتبة عسكريه عثمانية

[16] بجم: كلمه تركية، معناها: الغبي

قال الحكيم في آخر خيمة عزاءٍلآخر شهيد لـ(دنورة): ما زال الخير مُختبئاً في قصيدة شعرٍ وضحكة طفل.. ما زال في الأغاني وفي التراث الجميل، مازال في الثلج الأبيض فوق الجبال وفي (الضيعة الضايعة) ونهر الخوابي والفرات والخابور.. وبردى والعاصي، وفي النفوس البسيطة والعقول الذكية وفعل الخير.. في العلماء ومبدعي الفنون والغناء الذين تلتفُّ حولهم الجماهير في الأوقات الصعبة، وفي أثداء الحرائر اللواتي يرضعن أولادهن العزّةَ والكبرياء ومحبة الأوطان.

وفجأةً اقتحمتْ دنورة مجلس العزاء وصرخت: «والقاشوش اللي أكل الاخضر واليابس يا سيدي، ماذا نفعل بالقاشوش؟..»

الرفيق (القبقاب)[17]

الأصل هناك.. والذاكرة هناك..

في البدء يكون التكوّن.. يكون التأصلُ ويحفر النهر مجراه..

هناك عند الطفولة تتشعب الطرق.. ترسم الدوائر..

في زمن الطفولة تُختَزلُ الثقافة.. ثقافة الأهل.. ويُختزل صراع القوم ومعارف التاريخ والأعراف.. وطرق التعبير..

ومن هناك أولُ تفرّعٍ للدربِ إلى فرعين: فرع الثقة بالنفس والمستقبل، أو فرع الرهاب[18]..

(ريحانة) العجوز لا تتذكر من طفولتها إلاّ (القبقاب) القبقاب الذي رسم لها علامةً في الرأس وحفرةً في قاع الذاكره تقول ريحانة: أول صدمة.. أوّل الوعي.. أول معنى للقهر.. كان القبقاب، القبقاب الذي انهال عليَّ ضرباً على رأسي الصغيرة وجسدي الغض حين كنت في الرابعة عشرة من العمر.. كان مرعباً.. وكان دماً.. وكان صراخاً..

قالوا لريحانة فيما بعد: إنها قلبت طاولة صغيرة في المنزل عليها طنجرة من حساء العدس عشاءً للأسرة، وفوق الطاولة إبريق للشاي، وبعض الزجاجات، وشمعتان تنيران البيت، لماذا وكيف؟.. الطفلة لا تذكر.. كل ما تعرفه أنّ ضوضاء وصراخاً ومطرقة القبقاب تبعث وميضاً أحمر أمام الوجه.. و فقدان وعي إلى الصبح..

وجاءت الصدمة القبقابيّة التالية بعد شهرين، حيث قفزت (القردة) ريحانة فوق (الكانون) الممتلئ جمراً للتدفئة، فتناثر الجمر، وهرج الأهل وماجوا، وحضر القبقاب بجبروت، طارقاً الرأس ومحدثاً انتفاخاً فوق الصدغ الأيمن، حتى ظنت بعد أن تحسست المكان بأنّ رأسين لها..

---

[17] القبقاب: حذاء خشبي بسيط، ذو قطعة خشبية سميكة بمساحة أسفل القدم، ورباط يلِف أصابع القدم..

[18] الرهاب: مرض نفسي يصيب الشخص حين يرى أو يقترب من شيء محدد، بالذات رهاب.. حقاً إنّه رهاب..

وهكذا مع حضور القبقاب الدائم كبر الخوف واستطال القهر، حبلاً خانقاً وغطاءً أسود يحجب الإدراك وحسن التصرف، فكان القبقاب سيفاً مشهوراً في الوجه ورعباً ورهاباً..

حين يصبح العنف ثقافة.. حين تصبح العقوبة وسيلةً للتعليم، والقبقاب وسيلةً، عند ذاك تلجأ ريحانة إلى الانزواء، ويتلبسها الخوف، فترى نفسها في المطبخ تأكل وتأكل حتى صارت بمرور الوقت مثل الطبل الصغير..

كانت تختفي هناك كي تكون قريبةً تنفذ الأوامر هرباً من القبقاب وتلهي نفسها بمزيد من الطعام..

تكبر ريحانة وتدخل المدرسة، ويكون جسدها الكروي مثال سخرية وتعليق، وفي البيت يكون القبقاب حاضراً حين يكتشفون أنّ درجاتها منخفضة، وهكذا تابع القبقاب حضوره في حياة ريحانة ثقافةً ورادعاً، والمصيبة إنه دعم فكرة القبول والتأقلم والخنوع لدى الطفلة حيث لا مناص منه..

شوهدت ريحانة في الصف الخامس تلعب مع الصبيان، فصرخ بها الأخ الأكبر صرخةً أرعبتها، وفي البيت أحضر الأخ عصا خشبية، وأنهال عليها ضرباً، وبعدها جاءت الأم وأكملت المهمة بالقبقاب، ولم تعد إلى المدرسة بعد ذلك إطلاقاً..

كبرت البنت وأضحت مدعبلة مثل شوال القطن، وكانت مع أختيها الكبيرتين في عراك دائم، لم يوقفه إلا القبقاب، والأختان كانتا تنتظران من يتزوجا بهما، وفعلاً كان الخاطبون يأتون ويخطبون لكن الوالد يشترط دفع مقدم الصداق (المهر) نقداً لهُ، ويفسخ الخطوبة بعد شهرين أو ثلاثة، ويحتفظ بالمال الذي أخذه سلفاً، وهكذا عاش سنوات نصاباً للخاطبين، ثمّ زوّج الفتاتين كي لاتبقيا عانستين أمام وجهه.

ولذلك ضاقت به الحال مما دفعه للقبول بأن تعمل ريحانة التي كبرت عاملةً في معمل للنسيج، وهكذا خرجت من عالم مغلق ومن سطوة أمها والقبقاب..

العمل الجديد في (المعمل) كان عالماً آخر، عالماً فيه بشر وآلات، فيه حركة وأصوات.. فيه فضاء أوسع.. وفيه ذكور وإناث، وقالوا إنها ستأخذ مالاً كل شهر..

لكن ريحانة في أيامها الأولى كانت تتوجّس خيفةً، كانت تتوهم إن وراء الجدران، وراء كل آلة أو طاولةٍ، ثمّة من يقف حاملاً قبقاباً، وكأنه يوشك أن يشبعها ضرباً ويدمي رأسها ويديها، ومن يأتي نحوها تشيح بوجهها وكأنها تتفادى رمية قبقاب آتيةً من بعيد..
كانت تقرأ في عيني إحداهنَّ:

انتظري لحظةً فأنا قادمة إليك مع قبقابي.. وكانت ترى في ابتسامة احداهن قولاً:
انتظريني، غداً دوري في رميك أرضا، سأجعل قبقابي يأكل من رأسك أيتها البقرة..
كانت كالبلهاء، لكنها في الأيام التاليات، أضحت اكثر هدوءاً بيد انَ كابوس الزجر والقبقاب ظل شبحه يحوّم فوق رأس ريحانة، متوجسة من أية حركة أو إشارة تطالها وتجر معها حجراً أو عصاةً أو قبقاباً لعيناً..
ظلت ريحانة هكذا أياماً طويلةً ورعب القهر والخوف من الأعلى المتسلط..
صاحب القرار الذي يعاقب على الأخطاء.. الذي ينتظر دوره في التعذيب بالعصى أو القبقاب أو بشيءٍ آخر مجهول تماماً..
بعد وقت ليس طويلاً بدأت تظهر أشياء جديدة في حياة ريحانة.. حين دخل أوّل رجل جذبها بطريقةٍ ما إلى عالم جديد تماماً، رجل ظلت ريحانة تسميه: الرفيق القبقاب..
من هو ذاك الرفيق؟..
سنقرأ عنه في الحكاية القادمة:

-1-

شيء ما يلاحقنا، يتابعنا، يحوم حولنا، يطل برأسه الوحشي خوفاً، قلقاً، جنيّاً، شرقي الملامح، ولكلٍ رهابه، وربما يلفّ رهاب واحد عدداً كبيراً، حيث يسوط القهر جمّ كثير يجمعهم زمان ومكان، وربما قبقاب واحد..
ما حكاية قبقابك الجديد يا ريحانة؟..
تطلب (خديجة) المرأة التي رجعت مؤخراً من العمرة، من ريحانة مرافقتها إلى المسجد، ولأول مره تدخل ريحانة إليهـ ومن ساحته تدخل إلى غرفة الوضوء فيصدمها منظر القباقيب الكثيرة، لا يحصى عددها، متناثرةً خلف المقاعد الحجرية، ترتعب ريحانة من منظرها، ويخيّل لها إن ثمة هجوماً بالقباقيب على رأسها تدقه مطارق وضرباً مبرحاً، ولم تر ريحانه نفسها إلا مستلقية في البيت تغمض عينيها وتدفن رأسها بين يديها.. إنه رهاب القبقاب!!..

-٢-

ريحانه في عملها الجديد تدور في صالة النسيج، تجمع بقايا الخيوط، تكنس بين الآلات، تدفع عربة البكرات الفارغة أمامها وتبدلها بالجاهزة، هي جاهزةٌ لما يطلب منها، وما زالت متوجسةً وخائفة من أن تضربها بالقبقاب احدى النساء الكثيرات اللواتي يعملن في صالة الخياطة، مع إنها متأكدة أنه لا توجد من تلبس قبقاباً هنا..

يخرج رجل الصالة من غرفةٍ زجاجية مشرفة على الصالة، يدور بين طاولات العمل، تستقبله العاملات:

أهلاً.. رفيق.. كيف حالك رفيق؟!.

إن شاء الله مرتاح.. رفيق؟!

بدنا رضاك.. رفيق

رفيق يجيب بابتسامة أو لا يجيب، يحكي جملةً مقتضبة مع هذه أو تلك..

يبدي ملاحظةً غير مسموعة لأحداهن، ويقف مدّة أطول عند (سميّة) المرأة المسئولة عن بنات الصالة.

سميّة قالت لريحانه: اذهبي نظفي الغرفة الزجاجية..

ذهبت ريحانه تعمل بجدّ، اثناء عملها دخل رجلان، قال أحدهما:

أين المعلم؟.

قالت: والله رفيق ماجا ء اليوم..

قال الرجل: أنا اسألك عن الأستاذ..

قالت ريحانة: أي نعم.. أي نعم، رفيق ما جاء اليوم..

قال الرجل بنبرةٍ عالية: يا بنتي أسألك عن سليم.. عن سليم.. فهمتي؟..

قالت: أنا ما بعرف سليم، أنا أعرف رفيق..

عندها حضرت سميّه قائلة: الرفيق سليم في إجازة..

علمت ريحانة إن الأستاذ اسمه سليم وان (رفيق) صفةً ينادى بها، لأنه في (الجماعة أو الحزب) وكل واحد فيهم ينادونه بـ (رفيق)

-٣-

دعاها الرفيق سليم إلى مكتبه ثم طلب منها أن تذهب إلى منزله للتنظيف، فترددت ثمَّ قبلت بعد أن لاحظت نظرة الغضب الصاعدة وكأنّها لمحت قبقاباً يعلو كي يهوي عليها فقالت: بس ما أتأخر عن البيت!!..

كان المنزل واسعاً والأثاث ثقيل، حين تزيحه للتنظيف تئن تحت وطأة ثقله، ولمّا انتهت في ذلك اليوم.. رجعت في اليوم الذي يليه.. وقتها حدثها عن معنى كلمة رفيق وعن الحزب والكادحين والوطن والرفاق وعن أشياء لم تفهم ريحانة منها اي شيء، كالنضال والاستعمار، وبدت مسرورة بالرغم من التعب ثمّ شدّ على يدها وهو يدس فيها بعض المال وكان أول رجل يلمس يدها في حياتها..

زادت علاقة ريحانة مع سليم، وصارت رفيقةً في الحزب، تقرأ الجريدة وتنظف البيت، ولم تعد ترتجف حين يلمس الرفيق شعرها أو وجهها، إلى ان جاء يوم دخل فيه رجال مسلحون المعمل واخذوا الرفيق ولم يرجع ثانية، لقد اعتقلته القادة الجديدة وادعوه السجن..

الرفيق الجديد الذي خلف الرفيق سليم صار يأخذ ريحانة إلى بيوت الرفاق القادة، لتنظيفها، لم تكن بيوتاً بل كانت قصوراً، وساحات، وسيارات وحدائق ومسابح وشلالات مياه، وحراس، وأشياء داخل البيوت جاءت من عالم آخر، ولكنها جميلة وساحرة.

في ذلك اليوم المشؤوم، كانت ريحانة في صالون البيت، وكان أحد الأطفال يتقافز مع أخته الصغيرة.. هناك اشار إلى أمه ومن ثم الى ريحانة، ابتسمت الام وقالت لريحانة: انبطحي على بطنك.. وجاءت بالطفل، وركب على ظهر ريحانة..

قالت الأم: هيّا امشي على ركبتيك ويديك مثل الحمار، ودوري بالطفل فهو يحبُّ هذا..

نفذت ريحانة الأمر والطفل فوقها يضحك ويطوح بيديه وينادي: حا حا حا

وكذلك فعلت أخته.. وأتمت مشوارها العاشر فوق ظهر (الرفيقة)..

وهكذا صارت مهمة ريحانة من ذلك اليوم التفرغ كاملاً لتسلية الطفلين أبناء الرفيق..

في احدى المرّات سألت ريحانه السائق الذي أوصلها لبيتها: ما هو اسم الرفيق صاحب البيت؟..

قال السائق: اسمه عثمان.. عثمان القباقيبي.. جدّه كان صانعاً وتاجراً للقباقيب..

لم ترجع ريحانه إلى (الرفيق) القباقيبي، لكنها انتقلت إلى فضاءٍ آخر وجمهور بديل ستحكي فيه عن قبقاب جديد ورهاب قبقابي فظ..

الموّدعة

-1-

تعلق بثوب أمه الطويل.. أصر على الذهاب معها، قالت له:

ألعب مع الأطفال مثلك.. أنا راجعة عند الظهيرة..

بكى الولد ولحق بأمه التي مشت صوب الساقية تبحث عن الهندباء، وبعض نبات تعرف إنه صالح للطبخ، الحياة صعبة وحالة الفقر تعم القرى كلها.. لقد رحلت فرنسا منذ سنوات ولم يأت الخير الذي وعدت به الحكومات بعدها..

جمعت في صرة أنواع النبات الذي تعرفه بخبرتها.. ونزلت إلى الساقية تبحث عن حصى كبيرة، وطلبت من شعبان أن يبحث معها عن حصاة لونها أبيض.. وبعد جهد حصلت عل واحدة تشبه بيضة الدجاجة خبأتها في جيبها.. وعند البيت وضعتها في قن الدجاجه فسألها شعبان عنها؟..

أجابت الأم: هذه مودعة.. دجاجتنا تبيض بعيداً.. عندما ترى المودعة تظنها بيضة فتبيض قربها ونقليها وجبة للغداء..

في اليوم التالي طلبت الأم احضار البيضة التي باضتها الدجاجة في القن، لكن شعبان لم يعرف كيف يفرق بىن المودعة والبيضة، للتشابه بينهما، فقام برميهما كي يفرق بينهما فسالت بيضة الدجاجة على التراب وبقيت المودعه سليمة..

حزنت الام لأن الأسرة لم تجد ما تأكله وقالت لشعبان: ليس كل ما يشبه البيض بيضاً.. المودعة ليست بيضة.. افهم هذا..

بعض الأشياء تتشابه في الشكل فقط.

-2-

قالت الأم لشعبان مرة: أذهب إلى البيدر وأجلب حمارة جارتنا أم عزيزة، كي ننقل حطباً عليها..

لكن الفتى رجع لوحده متذمراً وقائلاً: أف.. ماعرفت أي حمارة.. ما في أكثر من الحمارات في الحارة.. أم عزيزة حمارة.. وعليا حمارة.. وأم حميد حمارة.. وأم حبيب حمارة.

شدته الأم من شعره مؤنبة: عيب عليك قل فلانة عندها حماره.. ولا تقل عنها حمارة..

وقالت له: انتبه. الحمير تتشابه في الأشكال وفي الحركات..

-3-

نشأ الفتى في كنف أمه حتى غدا شاباً.. شبّ على صفات الريف الجميلة الطيبة، والبساطة والصبر.. وتمكن أن يقود جرار إبراهيم عيسى وتعلم القيادة جيداً، وحين تطوع في الجيش تم اختياره بين عشرة سائقين، وتم فرزه مع أحد الضباط الصغار. ثم تنقل مع كثير من الضباط سائقاً، وكان قريباً لأحاديثهم وتصرفاتهم وإلى أسرهم أيضاً.. وكان يستغرب دائماً ويقول لنفسه: عجيب أمر هؤلاء!..

وانتقل إلى سيارة قائد أعلى واستغرب كيف إن هذا القائد يتحدث بكل شيء له علاقة بالتجار والعقارات، والمخازن الضخمة، والقائد الآخر همه الموائد والنساء..

أما القائد الأعلى فكان أكثر خبثاً ودهاء.. وبعد سنوات من الخدمة عنده.. قال لشعبان: خذ هذه الحقيبة ضعها أسفل سيارة القائد حسن..

ولما تردد في أخذها قال له: هذا أمر عسكري..

كان شعبان يدرك معنى أن يكون الأمر عسكرياً، لكنه أخذ الحقيبة إلى أقرب حاوية رماها هناك، فتفجرت.. وهرب شعبان إلى قريته.. وبعد أسبوع علم إن معلمه هو الآخر قد مات بانفجار غامض.

-4-

أصبح شعبان فيما بعد أحد السائقين عند حاكم المدينة، ثم سائقاً خاصاً له، علم الكثير عن علاقاته وأسرار بيته، وقرف من ميوعة ابنائه، وعجب من أين تأتيه كل هذه الهدايا والأموال..

تساءل شعبان عن علاقة الحاكم برجل الدين المشهور، وعن العلاقة مع أولئك الغرباء الذين يأتون أحياناً، ولا يعرفون لغة العرب..

كان الحاكم (غير شكل) حين يظهر على التلفاز.. يبدو وقوراً ومحترماً.. لكنه في الحقيقة ثرثاراً وبخيلاً جداً، طبعه الاستعلاء، يهز رأسه مثل ديك أم قاسم في القرية..

-5-

خرج شعبان من الوظيفة متقاعداً ليس فيه أي أثر للبلادة، لقد علمته الحياة حكماً كان يحكيها حين يسأل عن قضية أو تجربة، ولما سئل عن علية القوم الذين خدم عندهم قال:

إنهم متشابهون.. دون نبض ولا ضمير.. كتلة صماء تماماً، مثل: **المودعة**. .

قلة . . وذلة . .

بروة صابون[19]

كان تعباً، استلقى على حصير تحت شجرة التوت، حك قذاله.. ثم حك رأسه فوق الجبهة، وانتقلت يده إلى قفا رأسه يحكها بأصابعه الاربعة.. ثم حك صدره وساقيه.. قالت زوجته:

ما حالك عم تهرش رأسك هرش؟.. واردفت.

يلعن أبو التعب وأبو القلة..

فيما مضى -كان صغيراً- قالت له جدته التي عاصرت حكم الأتراك لأبيه:

كنا عايشين بالقلة..وبالذلة..

وقالت المرحومة أمه فيما مضى: تعبنا كتير وعشنا بالقلة والذلة..

أما حفيده فقد اقترب منه سائلاً:

جدو كيف كنت عايشين؟.

قال الجد: في القلة والذلة..

قال الحفيد: شو يعني القلة والذلة؟..

قال الجد: القلة قلتان.. ضيق اليد قلة، ونفر من البشر قلة.. أيام الاحتلال الفرنسي

أسمع.. جدتك فطوم اشترت لوحاً من الصابون..قايضته بعشرة بيضات بلدية من علي طنجور الذي لديه دكان متنقل على ظهر حماره..

جاءت (خضرة) جارتنا وطلبت أن تستعير لوح الصابون قالت فطوم: خذي أغسلي به وأعيدي الباقي كي اغسل أنا..

أخذت خضرة الصابون وأعادت نصفه تقريباً عند المساء، فغسلت جدتك فطوم القنباز.. وفي الصباح رجعت خضرة واستعارت بقية اللوح لتكمل غسلها وبعد أيام أرجعت خضرة قطعة صابون صغيرة.

لكن فطوم صاحت قائلة: هذه بروة صابون.. أين اللوح؟

---

[19] بروة الصابون: قطعة صغيرة جداً من الصابون..

قالت خضرة: أنا ما استعملت إلا بروة..
قالت فطوم: كذابة.. أخذت لوحا كاملاً..
قالت خضرة: أنت الكذابة والحقيرة.. أصلا غمزك علي طنجور وأعطاكِ اللوح بلاش.
جنت فطوم، وارتفعت الشتائم، وبدأ العراك ورمي الحجارة، وشد الشعر والصراخ حتى تعبتا ورجعتا كل إلى بيتها معفرة بالغبار والتراب..
هذا من القلة يا بني.. لقد كانت تحدث خلافات وقتالاً كبيراً على أشياء صغيرة ليس بالأمور اليسيرة شراءها من القلة والضعف..
أما الذلة.. اسمع يا بني ما قالته جدتي أنا:
أيام العثمانيين: كانت قلة من المالكين تمتلك هذه السهول الشاسعة الممتدة إلى الجبل البعيد..وهذا الوادي الواسع كان للآغا شاهين الذي يركب على حصانه كل يوم، يراقب الفلاحين وعملهم، وحين يرى فتاة صبية وجميلة يأخذها ويحضر شيخاً وشاهدين ويكتب عليها كتابه وتصبح -شرعا –زوجته.. وبعد أشهر أو أسابيع يطلقها، ويبحث عن أخرى ولا يعترف بأولاده من النساء اللواتي قد يلدن منه..
والذلة هي أن لا أحدا يجرؤ على الاعتراض -فالآغا تزوج حسب الشرع..
أما والذلة الكبرى فإن ولده الذي أصبح شاباً وورث كل شيء عن أبيه، كان يفعل فعل أبيهـ يتزوج من يشاء دون عقد ودون شيخ أو شاهد..
الذلة يا ولدي ان تقدس الظلم
والآن يا ولدي
بعد مئة وخمسين عاماً (في عصر العلم والتنوير)
القلة تنهب الخيرات وتفسد كل شيء، وتظلم البريء، والقلة تدمر المدن وكل شيء جميل، والقلة أفتعلت الحروب، وأحرقت الأخضر واليابس.. تحاول أن تقضم كل شيء ولا تترك حتى بروة صابون..
القلة من الوحوش تأتي من أصقاع الأرض تذبح وتسبي وتنهش..
لقد اختزلت مآسي التاريخ كله في بلادنا وأرضنا.. مآسي لا يشعلها إلا وحوش الغابات..
أما الذلة الآن فهو الخضوع لهذه القلة، وهروب المنافقين إلى شتى الجهات

تحت الانقاض

بهيجة: يا جارتنا، انا قلقة عليكم، أنتِ وأخي دبّاح الديك ما شفتكم من الصبح، أحكي لي شو صاير عندكم، وين كنتم؟..

أم الدن: كنا عند الشرطة يا بهيجة. .

بهيجة: عا اساس دباح الديك سامحك بديونه، ولن يطالبك بشيء!!

ام الدن: بلى، والله هو رجل شهم، أعفاني من ديوني له، لكنه حاول مساعدتي في مخفر الشرطة..

بهيجة: خير، خير إن شاء الله، معقولة انا جارتك ما بعرف قصة المخفر؟

أم الدن: البارحة عند الظهر راح ابني شعبان هو وأولاد الحارة إلى النهر، شلحوا ثيابهم، تركوهم على طرف النهر وسبحوا فيه، صاروا يلعبوا، مبسوطين وفرحانيين، وبعد شوي شافوا سيارة الشرطة، خافوا وحملوا ثيابهم وهربوا، إلا ابني شعبان كان يسبح بعيد، اختبأ خلف الصخره، جاءت الشرطه وصادرت ثيابه، ولا يعرف أحداً إنّ السباحة ممنوعة في النهر كما يزعمون، وبقي شعبان عارياً خجلاً وخائفاً، كيف يعود عارياً إلى القرية؟ بقي الولد حتى أظلم الليل، قال أقرانه إنهم تركوه عند النهر وهربوا من الشرطة، بحثنا عنه فوجدناه خلف المنزل مختبئاً وحائراً: متى؟. وكيف سيدخل البيت؟..

وصباحاً ذهبت مع جارنا دباح الديك وقابلنا النقيب وقال لي: شوفي يا اختي.. كان اسمه شعبان.. فقلت له: ابني شعبان وأنا أمه ونريد ثيابه..

قال الضابط شعبان: الثياب مصادرة حتى يسلّم حاله، قلة أدب انه يسبح عاري في النهر قدام العالم..

قلت للنقيب: ابني ولد لا يعرف.. عمره عشر سنين، لا يُخجلُ أحداً.. ونحن لا نعرف إن السباحة للأولاد ممنوعة، وانتم لم تخبروا أحداً..

قال الضابط: القانون قانون، وما حدا يجادل.

قال جارنا للنقيب: هلق آلاف البشر يسبحون على الشواطئ، وهم بلباس البحر، رجال ونساء يسبحون، فقط الولد شعبان قليل الذوق؟.. وبعدين النهر للضيعة، والبحر بعيد أين يسبح الأطفال؟..

قال الضابط: اطلع بره يا رجل قبل ما تطّلع بالقوة؟ وقال لي: الولد يحال إلى المحكمة، حتى ينال جزاءه. أين والده؟..

قلت له: يا ابن أمك، انتم في واد، والعدل في واد، والد شعبان شهيد من سنة، وما زالت عظامه **تحت الأنقاض**..

تنور أم سليمان

بهيجه تسأل جارتها: يا جارتي يا أم الدن، أرى الحزن على عيونك من الصبح.. خير.. خير إن شاء الله؟..

أم الدن: ابني.. ابني عدنان الدن معصّب.. ومتهوّر.. حمل شهادته الجامعية، وكتبه والصور المعلّقه على الحيطان والمجلدات الكبيرة الي لونها أحمر وأخضر وأصفر.. وصبّ عليها المازوت، وانا لمّا شفت المنظر ركضت حتى امنعوا.. بس هو كان متوتر وأشعل النار وصار كلما يحرق كتاب يقول: طظ..

وبعدين صار يدور حول النار ويقول: طظ في الثورة، وفي من وقف مع الثوره وعلي من عارض الثوره ومن اشترك فيها ومن لم يشترك، وطظ في الدول اللي ساعدت أو الدول اللي ما ساعدت.. وطظ في السلاح واللي استعمل السلاح،

وطظ في عقل هذا الغبي اللي حمل السلاح.. وكل السياسيين في الخارج مع نسوانهم وأموالهم.. والعمى فيك يا معكرون وأبو تين

بهيجة مقاطعة: ماكرون رئيس فرنسا وبوتين رئيس روسيا

أم الدن: أي.. أي.. وكمان طظ في أبو عقال..وأبو طرمبة..

بهيجة: هذا ترامب تبع أمريكا..

أم الدن: يا ويلي ما ترك حدا، حتى قال: طظ في قصر الخليجي اللي عا الجبل وبصاحب هاللي عنده شركة الهاتف، والوزير الأصلع، وصاحب الباخرة، وكل مين ضرب صاروخ من البحر، وكل مين قتل عا الهوية، أو قتل حتى يعفّش ويسرق..

والله يابهيجة بكيت عليه.. صار يسب القوانين والبشر.. وبعدين انتبه على دارك وقال: الله يوفقك يا بهيجة.. أنتِ الصح وغيرك غلط!!..

أحكي لي شو حكايته؟. كان هو سهران عندكم بالأمس؟.

بهيجه: والله كان زعلان على رفيقه اللي استشهد وسألني: يا بهيجة شو رأيك؟. وأنا حكيت له حكاية تنور أم سليمان..

: من شيء مئة وخمسين سنة وأكتر، كانت ضيعتنا صغيره وما فيها غير تنور واحد.. تنور اسمه تنور أم سليمان. وفي أحد الأيام جاءت (كاتبة) وضعت حمل الحطب جانب التنور وذهبت إلى بيتها لتأتي بالعجين، وأثناء ذلك حضرت (جبينة) وعلى رأسها طبق العجين مع ابنتها التي تحمل حطباً للتنور، وفوراً وضعت حطبها داخله وأشعلت النار وانتظرت كي تخفت النار ويصبح التنور جاهزاً، وقبل أن تخبز رغيفاً واحداً جاءت (كاتبة) فغضبت وثارت ولوّحت بيديها: كيف أخذتي دوري، ما شفتي الحطب جنب التنور، العمى ياخذك..

جبينة: لا ترفعي صوتك، كان التنور فاضي..

كاتبة: أبعدي عن التنور أفضل ما أعمل مشكلة..

جبينة: ابعدي انتِ، دورك بعدي أنا..

كاتبه: دوري أنا وغصباً عنك.. ثمّ تقدّمت ودفعت جبينة بكل قوة ورمتها على الأرض، صرخت جبينة، واندفعت ابنتها نحو كاتبة وسحبت عنها منديلاً كان يغطي رأسها..

ارتفع صراخ كاتبة وهي تجر منديلها، وهجمت كالمجنونة وشقت فستان غريمتها، وعلا السباب والشتائم، وكل واحدة أمسكت بشعر الأخرى تشده وتجر صاحبته، وانقلبتا على الأرض المغبّرة، وتدحرجتا، واختلط الصراخ مع الويل والكلام القذر، ولم تستطع النسوة اللاتي حضرن في الفصل بين المرأتين إلاّ قليلاً، وكلما باعدن بينهنَّ، عادتا إلى الهجوم، وكل واحدة أوجعت الأخرى عضّاً ورفساً..

أما بنت جبينة فقد جاءت بجرّة الماء، وأفرغت الماء في جوف التنور، ولم يعد صالحاً لإشعال النار..

وفي صبيحة اليوم التالي كان التنور قد أصبح كومةً من الحجارة، فاجتمع الرجال يتهمون بعضهم، وتطور الاتهام إلى سباب، ثم عراك بالأيدي، ثمّ بالعصي والحجارة، وأمواس الحلاقة، ونكبت القرية بعديد من الجرحى وانقسمت القرية، أضحى كل قسمٍ عدواً للآخر، ثمّ جاء الرجال يطلبون من المختار السماح لهم باستعمال تنوره الخاص بمنزله.

لكن المدعو مجيد أفندي دسَّ ليرةً ذهبيةً في يد المختار وقال: لقد اشتريت التنور من المختار وكل أسرةٍ ستخبز فيه، إكراماً للمختار وحلاً للمشكلة ولا اريد ثمناً.. فقط رغيف واحد من كل أسرة..

وهكذا يا عدنان صار مجيد أفندي يحصل على خبزه وخبز المختار مجاناً، ثمّ أنّه بنى تنوراً ثانياً عندما توسعت القرية وزاد عدد سكانها، ثمّ بنى فرناً حجرياً، وصار خبز القرية كله تحت رحمة مجيد أفندي..

يا ابني يا عدنان المشكلة كلها والمصيبة كانت تُحل لو تنازل أحد الطرفين قليلاً، يعني لو كاتبة او جبينة تنازلت، وكان صدرها واسع ما كان صار اللي صار..

يا عدنان.. تنور أم سليمان متل الأمانة.. مثل البلد.. بدو شوية عقل وشوية هدوء وصبر..

تيس[20] التيوس

اسمع يا بني، يقول الراوي:

البحرُ يفعلُ ما يريد، والريح تفعلْ..

الزهرة تقول لغتها، تفرضُ حضورها ورائحتها.. وكذلك شجرة الغار والزعرور..

الكلُ ينحو إلى البقاء، يقاوم فناءهُ بغريزته..

أمّا العاقل يُطوّع الأشياء، كي يُجدّدَ نكهة حياته، ويجعل لها بريقاً ورونقاً ومعنى..

لكنّ تيس الجبل غيٌر المعادلة، حوّل القضيةَ إلى عبء ثقيل، إلى هموم.. اسمع يا بني:

تيس الجبل

في الجبل العالي.. فوق أعلى قمّة، كان أكبر التيوس ولأقواها، سيداً مطلقاً للجبل، كان كبيراً كالثور، قرناه الملتفان مخيفان، طولهما ذراعان وأكثر، بهما قتل عشرات الذئاب والضباع والأرانب وكل من تجرّأ على مملكته، له وحده أشجار الجبل وحشائشها، وله هواء القمة العالية..

أحياناً كان التيس مصدر خير للبيوت المعمورة على السفوح المنخفضة، كان أهل البيوت يتركون سخلاتهم[21] تذهب إلى الجبل، فتتلقّح من التيس وتهبط، لتلد لهم الماعز القوي، والجدايا السمينة، فيذبحون الجدايا غذاءً لهم، ويتركون الأناث للحليب والتكاثر من التيس العظيم..

---

[20] التيس: هو ذكر الماعز الكبير والقوي والمعمّر.

[21] السخلة: هي انثى الماعز.

والتيس الصغير بطبعه شقي.. يّخرّب كثيراً، ويتطاول إلى الأعلى، يأكل كل أخضرٍ من شجرٍ ونبات، فكيف بالتيس الكبير؟ لم يترك شجرة في أعلى الجبل إلا رعاها وأيبستْ.. أصبحت قمّة الجبل جرداء، ثمّ ألتهم ما دون القمّة، حتى وصل إلى شجيرات الزيتون والعنب ونبات القمح على المدرّجات الصغيرة.. حتى صار التيس مصدر فقر الأهالي وتعبهم.

وممّا زاد الامر سوءاً أنّ العنزات التي يتركونها للتلقيح من التيس لا تعود كلها، ولم يعرف أحداً أين تختفي عنزاتهم، فأزداد همّهم وفقرهم.. حتى وصل الأمر أن يفكروا في التخلص من التيس وقتله، لكنهم اختلفوا في ذلك ولم يجرؤ أحداً عل قتل التيس..

قال الراوي: إنّ الرجال كانوا مجتمعين يسمعون من قارئ القصص إن ملوك بني العباس كانوا يتخلصون من أعدائهم بالسّم، فاجتمعوا على وضع السمّ للتيس في مزرعة قريبة له، وهكذا اختفى التيس، لكن العجب العجاب أنه ظهر بعد مدةٍ تيساً على قمّة الجبل أكثر قوةً وتخريباً، وأكثر ايذاءً وأشد ّ وطأةً عل الجميع..

ومنذ ذلك الوقت فرض التيس اسمه على القمة وما زالت تُعرف **بقمّة التيس**..

تيس المدينة

منذ فترةٍ ليست بعيدة، ظهر تيس في مدينة البو كمال، قالوا إنَّ له حليباً، وحليبه معجزة، إنّ فيه دواءً لكل عاقر لم تلد.. ولكلِ شخص به مسّاً من الجنون أو العته، ولكل عانس حين تتذوّق حليبه فإنّ حظّ الزواج يكون لها، وأشياء وأشياء..

وإنّ بضع قطرات من حليب التيس لا تُقدّر بثمن، ومع ذلك تقاطر الناس جماعات وأفراداً إلى المدينة من أماكن بعيدة ونائية، جلسوا وباتوا أياماً وليالي كي يحصلوا على قطرات الحليب الشافية لهم ولأرواحهم، واهتمّت الصحف والناس بهذه المعجزة وتساءلوا: هل للتيس حليباً والمثل يقول: (مثل حليب التيس) دلالةً على المستحيل؟..

اخلتف الناس بين مؤيد للتيس ومكّذب للرواية، لكنّ المؤكد أنّه شغل الناس.. وأغدق على أصحابه الملايين.

والبعض قال: إنّها تنم عن الجهل والغباء وإنّ القضية لها أهدافٌ أخرى سريّه لا يعلمها إلا تيس المنطقة البشري الذي فبركها واخترعها..

تيس التيوس

قال صديق الراوي وهو يتكلم بحسرة وقرف: يا أخي، والله هذا زمن التيوس، التي تخرّب وترعى الأخضر واليابس.. يا أخي وين ما رحت في الاسواق، في الدوائر، في الشركات، في الاحياء والبلدات، في الداخل والخارج، وعلى الحدود، في أي موقع، لا تجد إلاّ التيوس، وإذا سألت عن معلّم التيس بيكون تيس أكبر وألعن، وأكيد أكيد كل التيوس الكبيره في عندها: **تيس التيوس**. .

حدثَ أنّه . .

لم يعد لطيف إلى بيته.. ولم تك تلك علامة قلق لأهل البيت..

لم يعد لطيف إلى بيته ولم يفتقده إلاّ الكلب.. نعم الكلب الذي يشاركه بقايا طعامٍ، ويشاركهُ الحبل الذي يربط كليهما إلى شجرة المشمش..

لم يعد لطيفاً للبيت.. وحدها شجرة المشمش شاهدةً عمّا جرى، وعمّ تحدّث الصديقان: الكلب ولطيف..

صباح ذلك اليوم دار الكلب حول الشجرة وحول البيت، دار مراراً، كان يحفر بأرجله الأرض غاضباً، ونباحه يوزعه في كل اتجاه، يدور باحثاً عن صديقه، ويلوي مغتاظاً رقبته باتجاه باب البيت وكأنّه يقولُ: أنتِ السبب.. نعم أنتِ السبب..

خرجتْ المرأة السمينة، أومأت بيدها للكلب: اسكت، كفاك نباحاً، صرعتنا..

لكن (لايكو) وهذا اسم الكلب الذي أطلقه لطيفاً على الكلب ارتفع صوت نباحه، يواجه ويقاتل (سروة) صاحبة البيت لأنها السبب الذي أبعد لطيفاً عن البيت..

سروة هذه لم تكن سمينة حين تزوجت والد لطيف، كانت نحيفةً مثل القصبة، ولو كسّرتها وقطعتها ما كانت تملي المقلاة، كما يقول الجيران، وخلال عام واحد صارت كالبرميل أو كالطبل..

سروة هي زوجة الأب، وما أدراك ما زوجة الأب؟!.

ماتت أم لطيف وهو في الرابعة من عمره، وبعد انقضاء أربعين يوماً تزوج (جميل) والد الطفل وصارت سروة خالةً للولد..

في الشهر الاول كانت سروه جيدةً في تعاملها مع الطفل، ولطيف كل ليله ينظر بحيرة إلى فراش أمه، وقد صارت امرأة أخرى فوقه، يحضنها رجل هو أبوه، وكان يدور في أرجاء الغرفة يرى طيف الوالده في زوايا البيت، وعند العتبة تناديه، فيركض ويرتمي في حضنها، وحين ينام مساءً صار يفتقد لمسة يدي أمه اللتين كانتا تمسحان وجهه وتطبع عليه قبلتها، ولم يعد يوقظه أحداً في الليل/ ولذا صار يتبول (احياناً) تحته ليلاً على الفراش..

لم تتقبّل العروس تلك الحالة، فصارت تضرب الولد بكل قسوو، وباتت تضربه بعنفٍ أشد كل يوم إذا تبول أم لا، وصارت وجبة افطاره ضرباً باليدين، أو بالعصا، حتى انها كانت تسكب الماء فوق فراش الصغير وتقول لوالده:

انظر لقد عملها ولا استطيع حمل الفراش وغسله..

وأحياناً كانت الجارةُ تأتي على صوت صراخ الطفل: حرام عليك يا سروة، شوفي الطفل متل الملاك، اجمل طفل رأيته في حياتي..

فتطردها سروه وتزيد في ضربه، ثمّ باتت تحلُّ الحبل من رقبة الكلب المربوط إلى شجرة المشمش وتربط لطيف بدلاً عنه، ويظل مربوطاً إلى الغروب حين يوشك جميل أن يأتي من العمل فتربط الكلب مكانه وتشتكي لزوجها:

هذا ابنك لطيف عذبني كثيراً فهو قذر وغليظ ولا يسمع كلمة، فينهال الرجل لكماً مبرحاً وضرباً على الجسد الطري..

كانت سروة تعرف انّ أم لطيف كانت أجمل النساء، وصارت كأنها تنتقم من جمال المرأة الميتة وأخلاقها، وتقول للطفل وهي تضربه:

روح أربط حالك مكان الكلب..

وهكذا يفعل لطيف مع الكلب يتبادلان الحبل ويأكلان بقايا الطعام الذي يرمى لـ لأيكو، صارا يتبادلان الحرية..

اللغة المشتركة بين الطفل ولايكو، كانت كفيلة بحل مشاكل لطيف، فالكلب بإشارة من الولد يذهب ويأتي بالاكل، أو الأشياء التي يلعبان بها، إلاّ مشكلة الاستحمام وغسل الثياب فقد كانت الجارة عدوة - سروة - تنتظر غيبة الخالة عن بيتها، تأخذ الولد، تغسل جسده بالماء الساخن والصابون وتغسل ثيابه وتنشرها حتى تجف، لاعنةً السفيهة المنحطة سروة خانم..

عامان انقضيا لم يشرب فيهما لطيفاً كأس حليب أو يأكل قطعة حلوى ولم ير تفاحةً أو حبّة فواكه، فقط حبات مشمش سقطت من الشجرة قرب -لايكو..

عامان كاملان مرّا والصاحبان لم يفترقا، وفي يومٍ أتى كانت تهجم فيه سروة، وتضرب بعصاها الغليظة جسد الطفل المنهك من الحمّى، والطفل يئن ويبكي، وإذ

بالكلب -لايكو يقفز نابحاً يعوي على سروة، فتقع أرضاً وتبعد نفسها، وعندما حاولت ضرب الطفل مرةً أخرى كان لايكو لها بالمرصاد ولم تنفع محاولات الخالة وزوجها في ابعاد لايكو عن البيت إطلاقاً..

صار للخالة ولدان صغيران، وأضحى عليه ان يحملهما ويحرسهما، والويل له إن بكيا أو وسخت ثيابهما، ولطيف أبعد ما يكون عن حياة اللطف، فالأولاد في عمره ذهبوا للمدرسة، فهو يسمع ضحكة طفولتهم، ويرى قفزة العصافير بينهم، ويحلم ان يلبس مثلهم ويركض كما يتراكضون..

في صباح يوم تشريني لحق لطيف بالأولاد، ركض في الساحة ودخل الصف، كان مختلفاً في كل شيء، في الحركة واللباس، في الكلام والنظرات، في حركة العيون التائهة وفي الصوت القريب إلى النباح..

وكان ذلك حافزاً لأستاذ الفصل كي يعرف الحكاية، وبعد أيام وأسابيع، بعد جهد مضني عرف الأستاذ قصة لطيف، فأخذه وأبعده إلى جهة أخرى.. جهة اخرى مجهولة تماماً..

منذ ذلك اليوم لم يعد لطيف إلى البيت، ولم يشكل غيابه أي قلق على أحد، وحده -لايكو- ظل ينبح كل يوم على -سروة- الخالة زوجة الاب..

بعد ثلاثين عاماً، كان مدرّس التاريخ الأستاذ لطيف يشرح في أحد صفوف المدرسة درساً عن الاستعمار الأجنبي، وعن الدوافع والأفكار وغطرسة القوة، وعن السلطات الفاسدة، والتي تكون أشدّ خطراً على حرية الشعوب وتطورها/ وفي نهاية الدرس قال لهم: بالإطلاق، ثلاثة صفاتهم مشتركه وهم حثالة التاريخ:

الاستعمار، والحكومة الفاسدة، والخالة زوجة الاب. .

حرف الجر «من»

ينتابني شعور بالانزواء - وحيداً - تحت شجرةٍ بعيدة، أو على صخرةٍ يغوص نصفها في مياه البحر، أو في خلوةٍ رسمتها أمنيةً ولم تتحقّق..

لست مختصاً بالتحليل النفسي لأُفسّر تلك الحالة، إلاّ أنني واثقٌ إنّ المئات والآلاف وربّما أكثر ينتابهم هذا الشعور، وخاصةً للرجال المتقاعدين مثلي..

حملت صرّة الوجع والهموم التي تداعت خلال الحرب، وسرت قاصداً حديقة (الأندلس)، هل كان يوحي لي الاسم بشيء جميل وغابرٍ قد يرجع؟..

في ركنٍ قصي من الحديقة جلست على مقعد خشبيّ قد تقشّر دهانه، لم يكن ثمّة أحداً على المقاعد القريبة.. أطلت النظر في الفراغ المحيط، وفي أوراق الشجر على الأرض الذي شكّلَ بعض لوحاتٍ تجريديّة..

وأنا في هذه الحالة برز من الأرض شيءٌ كنصف الكُرة، مبهمٌ، ثمّ تلاصق معه شيء بحجمه جاء من جهة اليمين، وآخر من اليسار، ثمّة كرات أخرى أتت من الخلف والأمام وسقطت من فوق، وقد اجتمعت مع بعضها فأضحت كرةً بحجم برميل الغسيل الذي كانت أمي تجمع فيه غسيلها فوق حطب الزيتون المشتعل.

تدحرجت الكرة بذاتها، صارت بين قدميّ، انشطرت قسمين وخرج منها حبل تكوّر طرفه حلقةً صغيرةً ثمَّ امتد قليلاً وانحنى إلى الاسفل في نصف دائرةٍ وانعقدت في النهايةِ بدائرة صغيرة مطموسة.. لقد تشكّل حرف الجرِ «من»..

حلقة البداية - حرف الميم - بدا كالفم وقد انفرجت الشفتان، فسمعته يقول: ألم تقتنع بعد بأنَّ مصيرك الينا نحن حروف الجر؟..

قلت: من أين أتيت.. ولماذا؟..

قال: كما رأيتَ، أتيت من كل الجهات.. أتيت كي أجرّ الأسماءَ وألصق بها الكسرة والإنكسار وأعطيها أخي حرف الجر - إلى..

إنني انتزع الجزء من الكل، هذه مهمتي، انتزع الجنين من أحشاء أمّه، والصحة من الجسد، وأنتزع الحقد من النفوس والملح من الأرض، والدم من الجسد، فأنا حيادي كما ترى..

وأخوتي حروف الجر تتابع المهمة منهم الذي ينقلك إلى المعمعة أو الصومعة أو السجن أو الحرية، ومنهم من يضعك في حالة الذهول، أو في جوف القارب هرباً من الأوطان..

انتبه: «من» «إلى» «عن» «في» هذه مسيرتك، سواءً شئت أم أبيت..

بعد ذاك، ألتفّ حرف الجر وأسلمني إلى حرف الجر «إلى» وذهبنا إلى الطفولة والشباب والوظيفة وأماكن بعيدة، جميلةً وموحشة، وأقبية ودهاليز وغابات دون أنهار..

قلت له: كفى بربكَ جَرّاً بنفسي. .

قال: مهمتي انتهت، أنت الآن في عهدة حرف الجر «عن»

و«عن» أيضاً جرني إلى رجال سألوني عن أشياء غريبة: عن الألوان، من أين أتت، ولماذا أحب اللون الأزرق، وعن الفيلسوف محي الدين ابن عربي، وعن ابن خلدون وكتبٍ قرأتها عن المتصوفة، وأشعار أي النواس،وأغاني الزنوج والهنود الحمر، والحركات السريّه في العصور الوسطى، وما بعد الحرب العالمية الثانية، وعن قوس القزح، وسرعة شعاع الظلام، وأشياء كا الجن وعفاريت الاسواق والبورصة، والـ..!!..

والحقيقة إنني كنت أعرف جواباً واحداً لسؤال هو: مَن هو فرعون حالياً، وفي أيّة قصور يسكن؟.

ولكنّني صرخت: كفى.. كفى، إنني أحبُّ الهدوء بعد الجر..

قال حرف الجر «في»: الآن دوري، وسحبني إلى حيث الصحارى التي لا حدود لها، وإلى المتاحف، وحيث غبار المعارك، وقال:

منتهاك هنا في القوس الذي يُسمّى دائرة، انتهِ -اذا اردت- إلى الفعل أو الصفات المشبهة، أو كن مع الظروف والشرط..

قلت: لقد تعبت من الجرّ وحروف الجر..

اجتمعت حروف الجر دفعةً واحدةً وتجسدت في أشخاص بشر ألتفّوا حول المقعد الخشبي في حديقة الأندلس، وثمةً همهماتٍ وأصواتٍ مختلطة:

من الماضي

إلى الحاضر

في دوامة الحرب

مازال يعيش.. حالماً

حفنة ضوء وغنية

وجدي كان عاشقاً ..

والعشق عشقان، عشق الجسد، وعشق الروح، الأول يفضي إلى الثاني..

اسمعوا يا ابنائي حكمة جدي: العشق طريق الإبداع، طريق الحرية..

والعشق خالد أبدي، هو شاب في العشرين، متجدد عبر الأجيال، مبدع، مزهو، متلون حسب الزمان والمكان. والعشق صبية توردت وتفتحت زهراً ورائحة، ورمت على محياها نظرات خجلى تختلس رؤية الفتى، وتعد خطتها كي تفوز بمن تحب..

سأل أحد أحفاد زهرة: ستي؟! جدي كان جميلاً، جذاباً، لحيته سوداء ناعمة، وكان طويلاً وأنت قصيرة. عندما كنت تمشين معه إلى أي مستوى كان رأسك يصل؟.

لم تجب الجدة.. وبعد إلحاح قالت: كان رأسي يصل إلى مستوى تكة سرواله..

قال لها: كيف رضي بك؟..

قالت: أنا من رضيت به بعد إن اختبرت حبه..

أسمع: في احدى المرات ذهبت مع عائلتي في رحلة، لم اخبره، وحين رجع مساءً من الحقل وعلم بوجهتي استيقظ باكراً، اجتاز جناتا وستمرخو والجنديريه وهضبة البهلولية، مشى حتى المساء ونام في (كفريه) وتابع سيره صباحاً مجتازاً الجبال العالية مسيراً لا يتوقف.. ولما حل المساء كان عليه مسير ثلاث ساعات ليصل إلى «قمة النبي يونس» حيث المقام هناك، كان القمر مؤنساً له ليلاً، وأنا كنت جالسة على صخرة أرقب الضياء البديع، وأرقب الطريق حين بان شبحه ثم ظهر بابتسامته التي فاضت على ضياء القمر حضر وقال: لقد أشتقت اليك فأتيت..

قلت: كنت واثقة أنك ستأتي.

_2_

جدي المولود في العام 1887 كان ذكياً متعلماً، يقرأ ويكتب ويحفظ من القرآن والشعر الكثير، وأرادت زهرة أن تختبره، فانقطعت عن رؤيته لشهر، وأبدت رغبتها في البعد عنه، ثم أعطت ثلاث ليرات ذهبيه لرفيقتها وجارتها (ناعمة) التي ذهبت خلسة إلى الشاب في حقله، وبعد حديث هادئ ورقيق:

خذ هذه الليرات لك إن خطبتني..
قال الشاب: خذي مالك يا صبية، لا أبغي سوى زهرة، زهرة وبس..
وهكذا يا أولادي ثبت القول إن العشق ثراء..والعاشق أغلى من الذهب

_3_

والد زهرة كان غنياً وصاحب جاه، كل عام يأتيه الـ «تحصيل دار» ليأخذ ضرائب عن القرية. خمس عشرة ليرة ذهبية، هذا العام جاء مع خمسة رجال من الجندرمة على خيولهم، والد زهرة حاول تقليص المبلغ الذي ازداد عشر ليرات، فتذمر الجابي، وهدد النجيب بقاسي الكلام، فما كان من العاشق الحاضر إلا أن هب مع أحد الشباب ونزع بنادقهم وطردهم من القرية ورجعت أموال الناس..

قالت زهرة: العشق دفاع عن الحق.. العشق شهامة.. والعاشق شاعر مرهف، يرصف الكلمات في داخله رصفاً، فتشع ألقاً من عينيه.. والعاشق نورس بحري أبيض يحوم ويحوم.. لا يغادر شاطئه.. يهدل كما الحمام مغنياً، مثل جدي الذي غنى لـ «زهرة» (لأم الزهور) غنى لها وأنشد الشعر لأكثر من ثمانين عاماً..

قالت مرة: نعم عشقته.. لقد غنى لي.. علمني الشعر.

وقالت: كان شجاعاً، حين استيقظت القرية في يوم من العام 1911-كانت مطوقة بجيش عثماني اقتحموا البيوت، وساقوا الشباب كما يساق القطيع.. لم يتركوا أحداً فوق الخامسة عشرة.. كانوا ذاهبين إلى حرب اليمن.. جمعوا الشباب من كل القرى في (وطى) سهل البسليس، ومن هناك إلى سهل الغاب، وقد ساقوا في طريقهم كل شباب القرى التي مروا بها. ضربوهم وعاملوهم بقسوة، لم تشفع لهم ولولة الأمهات، ولا صراخ الأطفال. كانوا يجرونهم جراً، مشاة، حفاة، جوعى.. وبعد يومين، في سهل _حماه_وضعوهم في معسكر ونادوا: من كان أقرعً أو مصاباً بالجدري أو بالسل فليذهب إلى خلف المعسكر، وبدؤوا بالأصحاء.. جردوهم من الثياب، قصوا بالمواس شعورهم ولحاهم وشعر صدورهم وأباطهم وعاناتهم، ورشوهم بماء الكلس، وأحرقوا ثيابهم..

جدي «العاشق» غطى لحيته الجميلة بـ «الشملة» وانزاح مع المرضى، ثم استغل الفوضى أثناء فرز الجنود، وبسرعة فائقة أصبح خارج المعسكر مع شخصين آخرين، استغلا اللحظة وهربا، ثم افترقوا كل في طريق.

كان المساء قد حل ولم يكن ثمة قمر ينير المكان، جعل وجهه باتجاه الهواء، فهذا يعني أنه يتجه غرباً، كان عليه أن يبتعد كثيراً قبل طلوع الفجر، سار أغلب الليل صعوداً، وعند الفجر هده التعب فنام بين شجيرات دغلة صادفها، وعند الضحى أيقن إنه نجا وتراءى له البحر من بعيد، من جبل «الشعرة»..

لم يأبه للتعب وتدبر الماء والأكل من وديان سار بها، ومضى ثلاثة أيام حين طرق باب بيته منهك القوى، وحين سمعت زهرة برجوعه أطلقت زغردات طويلة قوية، وسط دهشة الجيران والأهل..

قال لزهرة حين رآها: لم نكن ذاهبين إلى الجهاد. كنا سنذهب إلى حرب اليمن حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، ثم قال: أنا أقاتل فقط من أجل زهرة.

قالت له: اشتقت لأغانيك..

وقالت زهرة: فيما بعد كان جدكم ذكياً. رهن حياته لتعليم الأولاد، مؤمناً بأن العلم يرفع شأن البشر. كان ينشد الشعر الجميل لقد حفظت منه الكثير.

ورددت كثيراً عبارتها الشهيرة حين يسألها الأحفاد:

حياتنا كانت حفنة عشق وشلال أغنيات..

نهض الصبي من فراشه صباحاً، خرج إلى ساحة الدار الصغيرة، وقف مندهشاً لهذا البخار الأبيض الكثيف المنتشر في كل الفضاء.. لم يرَ شجرة التوت في (الحاكورة) ولا شجرة السرو الباسقة وعصافير الدوري التي كانت تتقافز منها وإليها.. وبيت عمه أيضاً ومنزل جارته أم عيسى القريب قد غاب عن الرؤية؟..

قالت له أمه: لا تقلق، هذا هو الضباب..سينقشع بعد ساعات..

رغب الصبي أن يمسك الضباب بكلتا يديه وأن يسير في جوفه، أن يغيب في داخله، ويختفي عن أقرانه في لعبة (الغميضة) داخل اللون الأبيض الناصع..

قالت له أخته الكبيرة (وديعة): هل تأتي معي لنذهب إلى جبل «عين ركيه» لنجلب حطباً للتنور؟..

حملت الأخت فأسها الصغيرة وحبلاً رفيعاً وسارا معا، كانت الرؤية تتقدم أمتاراً أمامه وهو يسير، كانت دائرة الرؤية حوله وفوق رأسه صغيرة وبعدها الضباب ولا شيء غيره.. وحتى البيوت وبعض الأشجار كانت تظهر ثم تختفي تماماً..

: ماذا خلف الضباب؟. ما تأثيره..

بعد قليل بدأت تظهر الأشياء كما هي.. ويكتشف الصبي إن كل شيء بقي ثابتاً بعد تلاشي الضباب.. البيوت والأشجار والطريق والعصافير والساقية بقيت في أمكنتها..

حقيقة ثابتة لا تتغير.

لم يكن التل «الجبل» بعيداً.. بدأت الأخت بقطع نبات البلان اليابس، وجمعته في كومة كبيرة، ثم جمعت كومة أخرى أصغر.. كانت خبيرة في حزم ما قطعت بالحبل الرفيع، انتهت خلال ساعة واحدة، ثم قالت للصبي:تعال احمل هذه الحزمة..

بدت له كومة البلان كأنها جبلٌ.. كيف سيحمله؟.

لكن الأخت الخبيرة رفعت الحمل فوق ظهره، وأمسكته طرف الحبل، وحملت هي حملتها ثم سارا راجعين..

اكتشف الصبي إن الحمل، هذا الحجم الكبير، وزنه خفيف، ومن أعلى التل حتى أسفله قطعا المسافة في دقائق.. ومن ينظر من بعيد لا يرى الولد، يرى حملاً من الحطب ينزلق نحو الساقية، ثم يصعد إلى هناك حيث التنور الذي يتوسط بيوت الحارة..

بعد سنوات.. في درس التعبير نال الصبي الدرجة الجيدة عن وصف رحلة في الضباب..

وخلص من رحلته خلاصتين رافقتاه كبيراً:

- **أولاً**: الضباب، لا يلغي وجود الحقائق خلفه..
- **وثانياً**: ليست الحجوم الكبيرة لها ذات الوزن الكبير..

دودة في أنفه

عبثاً، لا فائدة، ذهبت محاولاتهم سدى، لم يستطع أحدٌ إقناع شعبان بحمل قطعة من القماش ليمسح بها أنفه، ويسحق هذه الدودة التي تخرج من أنفه؟.

هي ليست دودة، هي مخطته التي تخرج من أنفه بطيئة، ثم تزحف على شفته، مثل دودة الخل الكبيرة، أو دودة الطحين المعفن.. وحين تصل إلى شفته العليا يشرقها بأنفه إلى أعلى، فتنسحب إلى الداخل وتختفي، لتعود بعد دقائق وتظهر مقدمتها وتزحف على شفته مرة أخرى، ويعود ليشفطها إلى أعلى بدلاً من مسحها، أو إخراجها بمنديل أو قطعة قماش..

الولد في الصف الثالث، بليد في دراسته، بليد في تجاوبه، وعنيد، يرفض مسح أنفه وإخفاء الدودة.. وصار لقبه «أبو دودة»

لم يجد تعاطف المعلم ولا صبره في تغيير سلوك التلميذ، إذ ظل مهملاً ومتراجعاً بسبب بيئة الأسرة الفقيرة، كما قال أحدهم، أو بسبب طبيعة تكوين الولد..

شعبان صار شاباً يعمل يوماً ويستريح أياماً، فهو البليد لم يستوعب أي عمل، ولهذا ذهبت أم شعبان إلى رفيق الحزب كي يجعل شعبان الفقير موظفاً، ووعدته أن تعطيه (الحاكورة) التي تجاور أرض الرفيق..

فكر الرفيق وقال: غداً يأتيني وأسجله في الحزب أولاً..

في اليوم التالي ذهب شعبان إلى الرفاق المجتمعين، فتح الباب، خلع حذاءه، وقال: أي يومٌ آخذ راتب وظيفتي يا أستاذ؟

ضحك الرئيس والحاضرون: أهلا رفيق شعبان..

مضت الشهور وأمام إلحاح شعبان وأمه تم تعيينه حارساً لمحولة الكهرباء التي ركبت في غرفة منفردة.. فلقد دخلت الكهرباء حديثاً إلى البلدة..

كان على شعبان أن يرفع قاطع المحولة عند غياب الشمس لتأتي الكهرباء، وأن ينزل القاطع عند منتصف الليل. وقد استلزم تعليمه أسبوعاً كاملاً.

شوهد شعبان يقف منذ الصباح أمام المحولة يوصل القاطع، وحين قالوا له: أنت ما عندك شغل بالنهار؟..

كان يقول: أنا موظف.. يا رفيق..

وفت أم شعبان بوعدها، أعطت الحاكورة للرفيق الذي ازدادت أملاكه، وأصبح يمتلك محلاً كبيراً للأدوات الكهربائية وإصلاحها..

ولكي تنتعش تجارته وورشته طلب من شعبان أن يفصل أحد أقطاب المحولة، ويوصل القاطع، وبهذا يختل توازن الأحمال وتتعطل الأجهزة في البيوت، ويأتون للإصلاح، أو شراء بديل، فتنتعش تجارته. ولم يُجدِ شكوى الناس من تعطل أجهزتهم، ولم يعرفوا إن «أبو دودة» وتاجر الكهرباء هما أصل البلوى حتى الآن..

طوني الجميل . . (1)

كان فناناً، تكررت لقاءاتي معه، كان شفافاً كالماء، بسيطاً ولذيذاً كمذاق حبات الزبيب التي يهديها في مجالسه.. كان يرسم أشكالاً على الصدف ولا أعرف لماذا يرميها في البحر ثانية.. وكان مرهف الإحساس، يحفظ الشعر والحكم..يقول لي:

تكلم قليلاً واصمت كثيراً.. دع البحر يفرغ بك صمته وعمقه وجبروته ووداعته..

وقال: انظر هذا.. ورمى فوق البحر كرة صغيرة، صارت تتلاعب على الموج.. ثم رمى مسمار حديد صغيراً فغاص واختفى وكأنه يقول:

هذا الجبار عاجز عن إغراق كرة صغيرة، وعن حمل مسمار بسيط، وهمس:

الجبابرة الأوغاد عاجزون أيضاً عن إغراق الأمل..

اكتشفت يا سادتي إن طوني الجميل كان مشرداً.. ضحية الحرب الأهلية في لبنان.. فقد كل عائلته وداره وهاجر إلى جهة لم يعرف إنها ستكون «اللاذقية»

طلب الأمان فوجده، فأحب الجميع، لكنه آثر العيش منفرداً هادئاً دون أعباء، خفيفاً.. لكن وراء نظراته ثمة جرح عميق أحدث شرخاً في روحه اللطيفة، وقلقاً دفيناً مما سيأتي..

ظل هادئاً تكلله البساطة في العيش، مزخرفاً عربته، وملاطفاً للجميع، صديقاً للكبار والأطفال، نظراته تنشد الأمن فقط.. كان ثمة رعب خفي من زمن مضى ومن قادم الأيام..

أتى اليوم المشؤوم في بلد الأمان، ودارت رحى الحرب، لتبدأ بطحن البشر والحجر، وطوني الجميل مرافق لعربته ولكلبه الذي اشتراه قبل سنة..

وفي أحد الأيام حاصره المسلحون، وغاب معهم، ولم يشفع له كبر سنه، ولا نباح الكلب وعويله.. قتلوا الكلب برصاصهم، وطوني غاب أشهراً، ثم وجد مرمياً قرب عربته

الفارغة المحطمة، محاطاً برعاية كلبه الميت، وشفقة تبدو من بعضهم، وحيرة ورعب من آخرين..

كان جسد طوني قد أصبح نحيلاً، بانت عظامه، لم يتكلم مع أحد، وقد سمعت منه مرات عديدة: كان عليك يا طوني أن تموت مرة واحدة..

كل من رآه أحس بغصة وحيرة: لماذا يتحمل المساكين وزر هذه الحرب؟

ليذهبوا إلى الجحيم.. أنت يا طوني الطاهر الودود..

أما طوني فظل يردد في ساعات حزنه الطويلة:

لست خائناً، لم أكن خائناً، كنت وحدي، وحدي عند عربتي، أنا وكلبي، أنا وكلبي فقط..

رئيف بيك

كان ناضجاً، لم تك تنقصه الخبرة، رجلٌ بمثل نشاطه وحيويته، رجل بمثل مهارته في البيع والشراء، وتفذلكه في الكلام وحظّه الحسن، كان لا بد أن يحصل على مردود جيّد، وثروة زائدة..

بدأ التجارةَ باكراً على دراجته العادية، يحمل من القرية البيض والجبن والتين وزيت الزيتون، وفي الربيع الفول الأخضر وثمار المشمش واللوز، وما يراه مناسباً في كل فصل، ويعود من المدينة بالزبيب والتمر والصابون وبعض الملابس والأحذية والسكاكر الملونه والطحين..

فتح السيد رئيف حانوتاً صغيراً، ثمّ دكاناً أكبر، وألحق به مستودعاً واسعاً، وتنوعت بضاعته، حتى لو طلبتَ (لبن العصفور) لوجدته عند رئيف بيك، ولم يثبت له منافس، فكان مثل التمساح يبتلع كل الأسماك الصغيره وتقول والدته:

إنّه صار غنياً وصار التراب ينقلب في يديه ويصبح ذهباً، بفضل دعائي وبفضل شفاعة الشيخ عبد اللطيف..

والمقدس الشيخ عبد اللطيف المشرف مقامه على الجبل على القرية والنهر والوادي، هو حامي القرية من فيضان النهر ومن الزلازل والكوارث، وعنده يقسم المتخاصمون على كتاب الله، ولا يجرؤ أحد بالكذب في حضرته إلا (التمساح)..

السيد رئيف التمساح يسخر ويقهقه ضاحكاً حين يسمع امرأة تقسم بالمقدس عبد اللطيف، ويتهمها بالكذب وخيانة زوجها، ويقهقه حين يقسم السيد قاسم بأنه اتفق مع التمساح على فائده ٥٪على ديونه..

ويقول لقاسم: انت والمقدس صاحبك كاذبون والفائدة الشهريّة سبعة بالمائة..

ويقسم هو مستهزئاً: وحياة المقدس عندكم، ما عندي مصاري حتى أعطيكم ديناً ولا مواد مخباية..

ويهمس بأذن إحدى العجائز: إذا جاءت لعندي بنت بكر أفندي سأعطيك رطلين حلاوة، ونصف كيس طحين..

وإذا رأى لإحدى النسوة تحمل طفلها قاصدةً المقام: روحي اسقي الطفل زوفا، واعزميني على مشوار..

ومن أعماله إنه جمع مبالغ كبيرة من الشباب ليؤمن لهم سفراً إلى «الأرجنتين» كمهاجرين، لكن أموالهم وأحلامهم ذهبت سدى، وأقسم «كاذباً» بالمقدّس عبد اللطيف أنّه وقع ضحيّة نصّاب كبير.

ظلّت تجارة رئيف بيك في ازدهار، واشترى مزيداً من الدور والأراضي، وكان يحدّث زبوناً ما: أنا رئيف الصغير صار عندي احدى عشرة غرفة، ومستودعات، وتسعة أولاد من زوجتين، وكله من تعبي ويشير ساخراً إلى المقام: وبفضل هذا المقدّس..

ويأتي يوم لم يفتح رئيف محلّه، وتمضي أيام كثيرة والتاجر معتكف في منزله، وزاد عدد الأشخاص الذين يطرقون باب التمساح كي يفتح تجارته، ويشترون أو يبيعون له شيئاً، حيث لم يكن ثمة تاجر بمستواه وقدرته..

ازداد قلق الناس، فقد نفدت أغراضهم، وقلت مؤونتهم، وزاد القيل والقال عن سفره أو مرضه، وحتى عن زواجه سراً لمرّة ثالثة..

وأخيراً نقلت إحدى زوجتيه الرواية: رئيف بيك يُعالج عند الحكيم موسى

: ممّ يُعالج؟.. ماهو مرضه؟..

: منذ أيام استيقظ من نومه وهو يلهث ويقول مرعوباً يتصبب عرقاً:

دخيلك يا عبد اللطيف، أيها المقدس، تعبت من الحراثة، تعبت من الحراثة، أعدك، بس لا تربطني مع الثور وتفلح الأرض..

وفي اليوم التالي يقول رئيف وقد أوشك على الانهيار: جاءني المقدس ليلاً وأخذني وحرثت له الأرض البور الجافة والصخرية..

وفيما بعد ذلك اليوم كان كمن فقد أعصابه، وتوازنه، وانهار- وبقي دون طعام وصار يهلوس: دخيلك ياسيدي،أنا.. أنا.. رئ.. رئيف.. أشواك.. وصخر.. والنير *.. ما.. ثور.. ثور أبيض.. ما..

ضجت القرية كباراً وصغاراً وازداد التحليل، وتعددت الأقوال وفرقت العواطف، وبُني على الحكاية حكايات، وكلها من وحي الخيال وأغلب الناس يقولون:

بيستاهل هذا التمساح عقوبة أشد من ذلك، وأقسى، وليس لعلته دواء..

لكن الحكيم موسى كان له رأي آخر، وقد عالج رئيف بيك، وشُفي بعد أشهر، وعاد إلى تجارته، وقد اختفت دون رجعة تصرفات رئيف بيك القديمة..

أمّا كيف عالجه الحكيم موسى فهذا في الحكاية القادمة..

أن تكون ذا فِطنةٍ فهذا جميل، وأن تكون ذا درايةٍ ونبيهاً تقرأ سمات الآخرين وتعرف مواجعهم وأين مكمن الألم عندهم فأنت قارئٌ جيّد لأحوال الناس، أمّا أن توجّه ذكاءك وتجعله مطيةً لأرباحك وتجارتك وتصيب عزّة من تعاملهم وتهدر كرامتهم وتنال منهم بقوة مالك وثروتك فتلك الأشياء لها ثمنها عند البشر، وهذه كانت سبب وساوسك يا -رئيف بيك-

رئيف بيك -حمل أزمته النفسيّة إلى الحكيم موسى:

أيّها الحكيم، في النهار أنا السيد، أبيع وأشتري، ولي أوّل الكلام والبت في كل الأمور، وفي الليل أُسحبُ من فراشي حتى الصباح إلى حيث سكة الحراثة، في الأرض البوار والصخر.. أنقذ فؤادي يا سيدي، بما لك من الحكمة، منك الشفاء يا سيدي..

قال الحكيم: ستبقى في عهدتي أربعين يوماً، انظر، سوف تصعد الجبل وتنزل صباحاً كل يوم سبع مرّات، وتقطف بيديك باقة زهرٍ جبلي، وسوف تقف على البحيرة كل يوم سبع ساعات، تصطاد بالشّص، وعليك السهر حتى تصيح الديكة..

قال رئيف بيك: هذا كثير،هذا عبء لا أقدر عليه..

ثمَّ قبل شرط الحكيم وأسلم الأمر له، وصار يصعد الجبل ويقطف زهراً وينزل ويعاود الصعود منهكاً خائر القوى، ثمّ يجلس للصيد ويرجع للسهر.. والحكيم يراقبه ويسأله مساءً و«رئيف بيك» بين اليقظة والنوم:

لمن تهدي باقة الزهر؟..

ومن ستطعم صيد اليوم؟..

كانت الأسماء التي يذكرها «رئيف» مفتاح الحل، وقد استدعى الحكيم أولاً السيدة أمل، وعرف أن رئيف كان مولعاً بها، وهي جارته التي تزوجت غيره فبعث إلى زوجها مع أحدهم رسالة كاذبة تقول: إنّ عمّك في أمريكا يدعوك للسفر إليه فوراً. فما كان من الزوج إلا أن سافر دون رجعة، لكن أمل لم ترضَ برئيف زوجاً، وآثرت العيش مع طفلها الذي ولدته بعد سفر الزوج مباشرة.

قال الحكيم لها بحضور رئيف: هل تحقدين على رئيف إذا علمتِ أنّه سبب سفر زوجك؟.

قالت: لا.. أبداً.. لماذا؟ وزوجي كان يدعو الله كي يحقق له سفراً، ورئيف مثل أخي وهو جاري وابن قريتي..

في ذلك المساء نام رئيف نوماً عميقاً ولم يأتِه كابوس (الفلاحة مع الثيران)

وفي ليلة تالية أحضر الحكيم «أبو مهند» الذي ذكره رئيف، ورغب أن يطعمه سمكاً، وعندما سأله الحكيم: كيف اخترت أبا مهند؟..

قال رئيف: يا أبا مهند أنت رهنت أرضك مصدر رزقك مقابل ليرة ذهبية، ولأنّك لم تدفع لي، أخذت أرضك، وبقيت تنوء فقراً وحاجة..

قال أبو مهند: ليشفيك الله يا أخي، أنا الذي لم أستطع إيفاء ديني لك..

وأيضاً نام البيك نوماً هادئاً دون أن يوقظه أحدٌ..

في كل يوم كان الحكيم يأتي بشخص يذكره رئيف، أتى برجل اسمه «جميل» كان رئيف قد أحرق له حقل قمحه حسداً وغيظاً، وأحضر «أم السعد» التي باعت له بقرتها بنصف الثمن كي تسدد له ثمن أغراضٍ اشترتها منه..

وأحضر الحكيم آخرين سامحوا «رئيف» على أخطائه وحتى «الحاج أشرف» سامحه على موبقة بدرت له أمام عينيه مباشرةً من السيد رئيف.

بعد أربعين يوماً قال الحكيم: لم تعد مريضاً، هل عرفت الآن إنّ من كان يعذبك ويحرث عليك هو ضميرك، لقد سامحك الناس، يا بني إنّ عذاب الضمير أشدّ وطأةً من حراثة الأرض وإزالة الجبال، ليكن ضميرك حياً، احترم ضميرك واحترم ما يعتقده أهل القرية في «المقدس» ضمير القرية الجمعي..

قال الراوي مراوغاً :

ما كان يعذب -رئيف بيك - ليس ضميره الحي وإنّما شيءٌ آخر يبان في حكايةٍ قادمة انتبهوا.. دققوا جيداً..

انتبهوا إلى الأمثال، دققوا بها جيّداً، اعملوا العقل بها وانظروا المثل التالي:(كلب الأمير.. أمير)

هذا ليس صحيحاً، كلب الأمير يبقى كلباً، لا يتغير جوهره، يعود إلى معدنه الذي تكوَّن منه، تعود صفاته الكلبية بسرعة، بلحظة، لحظة واحدة فقط..

صحيح إن كلب الأمير يعيش في رفاه ونعومة، صحيح إنّه يقتات فضلات سيدة الشهية، صحيح أنّ شكله وصوته ونظرته وربما طريقة سيره وخطوته ربما أخذت شكلاً

أميرياً، ولكنها تبقى في الشكل، أمّا في الجوهر فالكلب يبقى كلباً، وإن عاش في قصر الأمير..

تجارة رئيف تجارة رائجة، رابحة، علاقته مع تجّار المدينة أوصلته إلى نائب الحاكم، وهو بدوره أوصله إلى الحاكم ومساعد الأمير العظيم في مركز الولاية، والطريق كانت سهلةً عليه، أغدق الهدايا الكثيرة، قمحاً وذهباً وخرافاً وحريراً، وأغدق حلياً نادرة للنساء، للأميرة ووصيفاتها ومن ترافقها، ورئيف كان مطواعاً لهنّ، يأتي بما يشتهينَ، ولسان حاله يقول:

إرضاء النساء طريق إلى قلب الأمير..

وهكذا اجتاز الطريق وأصبح في بلاط الأمير..

قال للأمير راكعاً في أول لقاء: رئيف، خادمكم المطيع يا مولاي..

قال الأمير: رئيف، ارفع رأسك، لا تكن جباناً فأنت ستحرس مخزن الأكياس الفارغة، وتعتني بكلاب الحراسة..

قال رئيف: كرمك سابغ على المملكة كلها، يهطل علينا من يديك كالمطر..

وفي الحقيقة كان كلاهما يكذبان، ويراوغان..

يعود رئيف كل شهر إلى قريته ليمكث أياماً، يعود وقد نفش ريشه كالطاووس.. يجمع الرجال ويحكي عن مغامراته المزعومة مع الملك، عن احتفاظه الكاذب بأسرار الملك، وعن حظوته عند سموه الذي لا يرد له طلباً، بل لديه القدرة على رفع من يشاء درجات أويحطّ من يرغب في أسفل الدرجات، والناس مشدودون إلى حديثه، ومبجّلون مكانه المحترم..

أمّا في الحقيقة فكان مجرد خازن خبيث للمخزن، يسرق منه، ويتلهى مع نساء الخدم، وينزل المدينة مع أحدهم ينصبون على التجار ويقولان:

نريد بضاعةً للقصر، أو إن للأمير أسعاراً خاصة، عليكم أن لا تردون من يشتري له، وأجادوا فن الترغيب بالأمير وفن الترهيب منه..

أمّا ما فعله بأهل قريته، فلقد جاءها مرةً واشترى أراضي القرية كلها بأثمانٍ بخسةٍ، زاعماً أنها رغبة الملك، والويل لمن يعارض، وفي مدةٍ قصيرة صارت أملاك القرية مسجلةً باسم رئيف، حتى تلك الأراضي الموصى بها للأيتام والثكالى صارت له، وصار اسمه رئيف بيك..

يقول الراوي :

حين ينبح كلب الأمير على علية القوم ورجال البلاط أو رسل الملوك إلى الأمير يظن نفسه سيد البلاط، وأن مقامه يلي الأمير مباشرةً، وله الحق في طرد من يريد، وهكذا دبّر رئيف مكيدة لأعز أصحابه وشريكه في الاحتيال ورُمي به خارج الإمارة، وأزاح كثيرين من طريقه بالغدر والخيانة، حتى بلغ الأمر أن يُسخر زوجته لمأربٍ وضيعٍ يليق بصفات كلب لا بصفات رجل مؤدب ذي شهامة واتزان، وذلك حين تناهى إلى رئيف أنّ الأمير يريد الزواج، وأوعز إلى أعوان له أن يبحثوا له عن أجمل النساء، ولأنّ «رئيف» له زوجة تضاهي البدر في جماله، وتسحر القلوب حين تبدو للناظرين، وتغري بمنظرها الأشد جمالاً من حوريات البحر، وأساطير الحسناوات، لذلك فكر رئيف وقال لزوجته:

ما رأيك أن تصيري إلى الأمير زوجةً، ثم تحوزين على أملاكه وإمارته، وبعدها تتخلصين منه بالمكيدة أو بالسم تضعينه في طعامه..

أحدث قوله زلزالاً في نفس الزوجة وغيظاً، كاد يطيح بها أرضاً..

وأجابت: تطلقني منك وتهديني إليه فهو أميرك وصاحبك

قال: نعم، ثمّ تعودين لي زوجةً..

قالت: أنا موافقة..

في اليوم التالي كانت طليقة رئيف تبحث عن زوج لها وبعد مدة اختارت رجلاً شاباً.. فقيراً، طيب القلب، رضي النفس، وصارت له زوجة..

وحين كانت تُسأل: لماذا اخترت هذا؟ ولم تختاري الأمير؟ أو تعودي إلى رئيف صاحب الأمير؟..

كان ردّها: أمّا الأمير فليس من طينتي، وأمّا رئيف فهو كلب للأمير، وكلب الأمير يبقى كلباً ولا يصلح مطلقاً أن يكون أميراً، ولا حتى زوجاً..

زرطيط[22]

الصيادون لا يتكلمون إلاّ قليلاً..

الصيادون يبيحون بوحاً، للأزرق واسع المدى، للصخرة الملساء التي عاندت الموج، للزرقةِ الداكنة على يمين «القليعة» لسمكة الـ «زليق» التي تراوغُ وتراوغ كبنت الضيعة «مهدية» البنت الشقية الجميلة التي تدور على نساء القرية وتبتسم لهنّ بوجهها المُورّد وتقول لكل واحدةٍ منهنَّ:

إن شاء الله بتصيري حماتي. .

والنساء تقلن لها مسرورات: يا ريت، لن نرى أجمل منكِ

لكن «مهدية» مثل سمكة الـ «زليق» لا تأكل الطعم إطلاقاً، بل تتمايل مختالةً بانسيابها الجميل وفستانها الزهري..

مهران يجلس على كرسي صغير فوق الصخرة الملساء على الرأس البحري، جلس هناك منذ القِدَم منذ مئات السنين وربما أكثر، كان اسمه مختلفاً في كل كَورٍ زمني، لكنّه هو، هو.. المتحد مع الأفق الرحب، مع الأزرقين، مع بقعة بحرية قد تجلُب رزقاً، أو حوريّةً يبثّها لواعج دفينته الحزينة، وأحلامه التي انتظرها من عهد التكوين..

«مهران الكبير» جدّنا الذي لم يتعلم القراءة ولا الكتابة منذ مائتي عامٍ كان يجلس على كرسيّه الخشبي الصغير، يدلي بسلّة القصب المجوّفة ذات الفتحة الضيّقةِ في الماء، وينتظر حتى تدخل سمكة ما إلى داخل السلّة لتأكل طعماً وضعه مهران، عندها يسحب سلّته بسرعةٍ ويأخذ صيده..

وابن مهران الكبير تعلّم صيد السمك وأصبح بدوره جَدّاً، فأخذني معه أنا مهران الصغير إلى البحر مرّات ومرات، ولكني كنتُ نزقاً وثرثاراً، أقطع صمته وتأملَهُ، وأسأله كثيراً ..

قلتُ لهُ: ماهذا الأبيض الذي يخرج من الموج؟..

قال: هو الزَبد

قلتُ: وممّ هو؟..

---

[22] الزرطيط: أصغر الطيور على الإطلاق، عصفور صغير الحجم، أصغر من عقلة الأصبع، لا يسمن ولا يغني من جوع.

فقال: دموع الذين رحلوا في البحر ولم يعودوا..
ولكني لم أفهم ما يعنيه!
وسألته ثانيةً: لماذا يصبح البحر داكناً وقاتماً كلما ابتعدنا عن الشاطئ؟..
قال: لأنّه المجهول..
وأيضاً لم أفهم ما قاله الجدّ
ومرةً سألته: أين ينتهي البحر؟..
قال: حيثما تنتهي الأحلام. .

وفي كل مرةٍ كانت أجوبته لغزاً بالنسبة لي، حتى صرتُ في الصف الخامس حين طلب الأستاذ في المدرسة أن نكتب موضوعاً نصف فيه البحر.

فكتبت: زبدُه دموع الأمهات اللواتي هاجر أولادهن ولم يعودوا، وأفقهُ هي الأحلام التي لا يسعها المدى، أمّا عمقه فهو المجهول الذي يسحقك إذا لم تصنع سفينة النجاة بيديك، وكتبت كثيراً من تعاليم مهران الكبير حتى إنني ذكرت إنّ البحرَ يشبه حبيبة مهران، وذكرتُ أيضاً سمكة «الزليق».

قال لي الأستاذ: هل تدلني على الأديب الذي نقلت عنه؟.
قلتُ هو جدّي، رحمه الله

حفيدي مهران، عشق البحر أيضاً، لكنّه أبدع في الدراسة، وصار جامعياً ومبدعاً في اختصاصه، ثمّ موظفاً في الشركة العامة..

كان عليه أن يثبت حضوره بالتوقيع على دفتر الدوام اليومي يومياً، أمّا المدعو (حمشة) مراقب الدوام وماسك دفتر التوقيع وهو بالكاد حاصل على الشهادة الابتدائية، صار يُوبّخ الأستاذ مهران:

شو يا أستاذ صاير عم تتأخر عن الحضور؟..
قال الأستاذ: أنا آخذ عملي إلى البيت، أسهر ساعات طويلة كل يوم كي أنجز العمل.

قال حمشة: والله تاخد الشغل عا البيت أو ما تاخذه ما بعرف، بدك تجي بكير أو أمنعك من التوقيع..

وفعلاً صار حمشة يسحب سجل الدوام ويرفع تقارير الغياب إلى (الرقابة) ثمّ إلى (أمن الوظائف) والرقابة والمدير العام يشهدون مع حمشة بأنّ مهران يماطل في دوامه..

قال المحقق لمهران: حمشة موثوق لا يكذب، وإذا ما عاجبتك الوظيفة الله معك..

حاول مهران إقناعِ المحقق بأن مصلحة الشركة لا تكمن في تأخيرٍ عن الدوام عشر دقائق بل في العمل المُنجز في البيت والذي يأخذ جهداً وساعاتِ سهر طويلة، لكن عبثاً، لا فائدة..

استقال مهران، وأثناء خروجه الأخير سمع حمشة يقول: كان يحسب نفسه نسراً جارحاً ولكنه أصغر من «زرطيط»

كان الأستاذ مهران في غرفة التحقيق عارياً عدا «الكيلوت» جرّدوه من ملابسه، وضعوا عصابةً سوداء على عينيه، وقيّدوا يديه إلى خلف ظهرهِ، وصار منبطحاً فوق بلاط الغرفة البارد، وحذاءٌ أنيق، لرجلٍ أنيق فوق رقبة مهران: ولاه، زرطيط، مين شايف حالك؟. احكِ كل اللي عندك..

لم يسمع مهران السؤال، كان يتساءل في سرّه: لماذا جرّدوني من ثيابي ولِمَ العصابة فوق العينين، ولماذا الانبطاح على البلاط ولمن هذا الحذاء؟

لم يسمع مهران السؤال التالي أيضاً.. لقد فقد الوعي تماماً.. لقد بدأ الاستقبال..

تجاوز الأستاذ مهران محطاته البائسة، صار لزاماً عليه أن يعيش في محنةٍ أخرى، محنة الحرب الداخلية، وفي أحد فصولها الطويلة كان مهران راجعاً إلى بيته مساءً، حين انتصب له قبل مدخل القريةِ حاجزٌ لمجموعة مسلحين، أوقفوه وطلبوا هويته، ولكن مهران كان قد نسي بطاقته في البيت..

قال لهم: بيتي قريب دعوني أحضر بطاقتي، لكنّهم لم يدعوه، بل أوسعوه ضرباً وركلاً، أخذوا منه سيارته ونقوده ونزعوا عنه ثيابه..

: لو كنت صادقاً كنت تشبهنا في الشكل وفي اللباس والذقن..

أخذوه إلى منطقة بعيدة، ثلاث سنوات وهو يحفر الخنادق بيديه مع أمثاله من الأسرى، إلى أن جاء يوم اضطرب فيه الحاضرون وتهامسوا:

جاء الأمير.. جاء الأمير..

حين وصل الأمير قرب الجماعة، انتفض مهران واضطرب واهتزّت مفاصله وسقطت دمعتان من عينيه وصرخ من حنجرةٍ جافّة وكليمة:

حمشة.. حمشة..

نظر الأمير إلى مصدر الصوت ثمّ قال دون أن يقف: هذا أنت يا زرطيط؟..

شاورما

قادمة من المدينة البعيدة، دخلت «أم عبدو» منزل خالتها في القرية. كانت مع أمها وابنها الصغير عبدو، سلمت على خالتها وهرعت مسرعة إلى صحن الدار، صعدت على كرسي هناك وبدأت تقطف بيديها أوراق الدالية الخضراء الغضة، وتحشو فمها بورقة إثر ورقة حتى جردت غصناً كاملاً من أوراقه. ثم قالت لخالتها التي أتت تبحث عنها:

«ياخالتي، الوحام صعب، صعب كتير، صار لي زمن وأنا عم اتوحم على ورق عنب أخضر أقطفه بنفسي من العريشة.»

عادت «أم عبدو» إلى المدينة وقد اختارت اسم «دالية» لتطلقه على الطفلة التي أنجبتها بعد فترة.

مضى الوقت سريعاً.. كبرت الطفلة دالية، صارت في الخامسة عشرة من العمر، وصار لزاماً على أبويها تزويجها، لأن زواج البنت «سترة» وراحة بال..

وهكذا رأت دالية نفسها أمام شاب جاء خاطباً، وهذا الشاب يعمل في «الصناعة» مع والدها.

قال الوالد لأم عبدو: لقد أعجبني، كان شهماً، نظر إلي في المصنع قائلاً:

أنت مريض ياعمي، والله أنا سأشتغل نيابة عنك، والله لن أدعك تعمل وأنت مريض، وهذا الشاب جعلني أستريح ثلاثة أيام حتى شفيت..

وهكذا رأت دالية نفسها زوجة في منزل مؤلف من غرفة ومطبخ وحمام وشرفة مغلقة بشبك كثيف من الحديد الغليظ. ومنذ اليوم الرابع للزواج أضحت حبيسة في المنزل الذي يقفل بابه «العريس» صباحاً، ويعود مساء ليفتحه، ويرتمي متهالكاً من التعب.

وتمضي الأيام والأشهر وتبقى الشرفة النافذة الوحيدة لرؤية العالم، وتمضي سنوات ثلاث لم ترَ فيها بيت أهلها إلا ما ندر، ولم تحظَ فيها بالخروج إلى الشارع أو إلى سوق أو دكان أو حديقة.. لقد حرم عليها الزوج الخروج والمال ومحادثة الآخر.. الآخر الذي يعني له دائماً: الشيطان.

في إحدى المرات النادرة سمح لأمها أن تأتي لزيارتها. كانت الأم مع جارة لها.. تركهم الزوج وغاب ساعة عن البيت. في تلك الساعة أخرجت الجارة «ساندويشة» من

المحفظة وبدأت تأكل. نظرت إليها دالية، وهي التي تقضي أياماً وشهوراً والوجبة الوحيدة المتوفرة (خبز مع دبس الفليفلة الحادة).

لقد سال لعابها وتعلق بصرها بلفافة الخبز وسألت: «ماذا تأكلين»؟

قالت الضيفة: سندويشة شاورما..

قالت دالية: وما هي الشاورما؟.

: إنها من شرائح اللحم المشوي والتتبيلة الزكية.. خذي، هذه لقيمات منها..

أخذت دالية ما قدم لها وأكلت ببطء لقيمات لم تذق في حياتها طعاماً ألذ وأشهى.. سال لعابها على حواف فمها وقالت وهي تتلمظ:

أعطيني لقمة أخرى..

في الأيام التالية استطاعت دالية أن تحدث جارة لها.. وضعت كرسياً في الحمام وصعدت تنظر من نافذته الصغيرة

فرأت جارتها تتحرك في مطبخ مقابل.. نادتها:

«أنا هون، جارتك، أنا محبوسة بالبيت، بدي حدا احكي معه.»

وصارت دالية تتحدث كل يوم مع جارتها.. تمضي واقفة على كرسي صغير في الحمام وتبث شكواها ووحدتها.. أضحت النافذة وسيلتها الوحيدة للاتصال بالعالم.. وفي يوم ما أخذت (١٠٠) مائة ليرة من جيب زوجها، ربطتها في طرف عصاة المسح، ومدتها من نافذة الحمام قائلة:

بدي ساندويش شاورما؟..

قالت الجارة: البلد في حالة حرب وفوضى، بس ولا يهمك..

حققت لها الجارة (بطريقة ما) رغبتها، أخذت دالية «الشاورما» بفرح عامر وجلست إنما بسعادة ورغبة.. تحرك لسانها حول شفتيها بعد كل قضمة.. تأكل وهي مغمضة العينين.. رغبت أن تبقى أياماً وهي تأكل لفافة إثر أخرى..

لكن ذلك المساء هبط وحلت الكارثة على دالية. لقد تفقد الزوج جيبه وعلم أن مائة ليرة قد اختفت، فثارت ثائرته وتحول إلى وحش يفتك بالزوجة (السارقة).. رماها أرضاً وصار يضربها بيديه. قفز فوق جسدها، مزق ثيابها، ونزل بقبضتيه على وجهها.. كانت تتلوى تحت قدميه ثم سحب نطاقه الجلدي، وانهال بالسوط عليها صارخا كالمجنون:

أنت سارقة، سأقطع يدك، بدي قطعك متل قطع الشاورما، نحن في حالة الحرب؟..

لم يُشفِ غليله صراخها وهي تستجديه: دخيلك، أبوس رجليك، حرام.. حرام..

وظل يرفس بوحشية وهو يردد:

«شو تركتي لأيام القحط؟. ما شايفة الحرب؟.. حرب.. حرب..»

وهو لم يسمع صراخ طفلته ذات الأربعة أعوام. حتى أن المرأة لا تعرف كيف فقدت صوتها وكيف فقدت وعيها.. وحين أفاقت كان الصباح ولكنها لم تقوَ على النهوض.. كان يوماً فظيعاً، جحيماً، مهولاً، لم تنتهِ آثاره لأشهر عديدة، لكن أثره في النفس والروح لم ولن يزول أبداً.. أبداً..

وكل ذلك الجحيم لم يلغِ مذاق تلك النكهة.. نكهة ساندويش «الشاورما»

أنا دالية.. ابنة الجبال والبراري الواسعة.. ابنة هذا الفضاء الفسيح.. أفتح ذراعي للريح تحملني صوب الأفق.. كطائر الوروار.. كالنورس الأبيض.

أحلم بنهر وشراع.. أحلم بأرجوحة وطوق ياسمين.. أحلم بيد زوج تربت على كتفي في رحلة شاطئ بحري.. أحلم بفستان ملون مزركش بالورود.. وشال أبيض مشلوح على كتفي.. ورغبتي أن أمشي بمفردي، حرة، في الأسواق..

لا.. لا.. هذا خيالي يوحي لي بتلك الصور. هذا بعض الجنون. أنا فقط أريد لعبة أستطيع شراءها لطفلتي.. وأحلم.. بساندويشة شاورما؟..

مضت عشرة أيام وكدمات زرقاء تتسع فوق جسم المرأة. قالت وهي تكشف عن ساقها وبطنها المليء بالتقرحات:

إلك يوم يا ظالم..

وأتى يوم قريب رجع فيه عبدو من صلاة الجمعة مرتعباً يرتجف وقال مضطرباً:

لقد قتلوا شيخ الجامع، كنا خمسة فقط، قتلوه بالرصاص.

: ؟..

: سمعت أصواتاً من الشارع ثم علت الأصوات والضجيج. واقترب صوت رصاص كان يسمع من حي آخر.. ودخلت الشارع سيارات تحمل مسلحين كأنها تسابق العاصفة وعلا أزيز الرصاص.. اختلطت الأصوات وقفز الأطفال إلى الشرفات وعمت الفوضى داخل البيوت حين سمع الناس أصوات مكبرات الصوت وهي تقول:

لينزل مساءً كل شاب ورجل. كل من يستطيع حمل السلاح ينزل ويلتحق بنا والذي يهرب سنذبحه.. سنقطعه ونجعل لحمه شاورما..

قالت طفلة دالية: ماما شو يعني نذبح الشباب ونعملهم شاورما؟..

في مساء ذلك اليوم سمع أهل الحي نداء: اخرجوا.. اهربوا..

الطريق سالكة حتى خارج المدينة.. غداً لن يستطيع أحد الهرب.. اخرجوا بسرعة..

عمت الفوضى وارتفع الضجيج والصراخ.. تاهت الحركات وتوترت الأعصاب وصارت الأفعال كأنها أفعال أناس فاقدي القدرة على التصرف السليم.

تقاطرت العائلات تحمل بعض متاع ثقيل. لم يكن ثمة كهرباء أو ضوء قمر. فقط بعض مصابيح يدوية تلحقها الأطفال وسط صراخ الآباء وسقطات على الأرض تحت وطأة الأحمال. وأدعية مشوبة بالبكاء والألم، وصراخ بعض الرجال وشتائم كافرة لم يسلم منها من في الأرض أو في السماء. وكل يحاول أن يكون مع أسرته كي لا يتوه عنها.

في قافلة الهرب كان عبدو الزوج ينهر دالية كي تسرع. يصرخ بها لاعناً أمها وأباها. وهي تغص بالدمع من ثقل بنتها والأغراض الثقيلة التي أجبرها زوجها على حملها. وقد تعثرت مراراً وسقطت على وجهها، وفي كل مرة كان يرفسها بقدمه كي تنهض من جديد.

أنهك المسير والحمل كاهل دالية. لم تقوَ على الحركة، جلست على حافة الطريق الترابي. رجع الزوج باحثاً عنها وحين رآها رمى بثقله عليها ضارباً، ودعاها للمسير بسرعة.

أمام التعب والألم والجوع اتخذت دالية قرارها:

سأهرب في هذا الزحام..

وهكذا تراخت خطواتها وسارت عكس المسير متراجعة إلى آخر القافلة، وكان الظلام موحشاً يزيد وحشته الصراخ والشتائم والعويل والإرهاق الذي استمر إلى ما بعد منتصف الليل، حيث وجدت نفسها دالية تصعد في قاطرة يجرها جرار زراعي. تلك القاطرة التي حشر فيها عشرات العائلات وسط الآهات وبكاء الصغار وولولة النساء..

في تلك القاطرة قالت طفلة دالية: ماما أنا جائعة..

تحسست الأم صرتها وأخرجت قطعة خبز

قالت الطفلة: بدي زيت وزعتر..

رد أحد الرجال ساخراً ومتهكماً: وين أبوها؟. خليه يجيب لها شاورما..

ثم نظر إلى الطفلة وقال الخبيث: يمكن أمك بدها شاورما؟..

همست امرأة في أذن دالية: لا تردي عليه الله يوفقك، نحن في خطر، من عشر سنوات نعيش على حسرة تناول سندويشات أرخص من ..

الحكاية تنتهي غداً؟..

كان ذلك القول خطأ كبيراً.. والقارئ أخطأ أيضاً..

حكاية دالية والرازحين في ساحات الحرب حكاياتهم لا تنتهي..

حكاية تولد من حكاية.. وأشواك تنبت من أشواك.. قهر يجر قهراً.. وهروب يوصل فقط إلى المستنقعات العفنة القذرة..

والحكايا.. حكايات الحروب والقتل والذبح والضياع تورث للأبناء، جيلاً إثر جيل.. فثقافة الحرب تعشش في الذاكرة، وجراحها تنز قيحاً وصديداً، واللعنة تلبس الجميع.. الجميع دون استثناء..

في تلك الليلة كانت قاطرة الجرار الزراعي تحمل عشرات الأسر الهاربة من بيوتها. كانت الأجساد تتكون فوق بعضها، والعويل والصراخ يجعل الكلام مختلطاً، مبهماً، كل يكيل الشتم للآخر.. والقاطرة ترتج بعنف فوق حجارة الطريق الترابية.. وترتج معها الأصوات والأجساد.. حتى إن أحد الأجساد هوى فوق «دالية» ربما عن «قصد» فأبعدته بصفعة كف على عينه اليسرى..

أنهكت الأجساد من الارتجاج والسهر، وغبار الطريق غطى الوجوه والثياب، وبقي الحال ساعات، حتى وقف السائق مطالباً بالأجرة لأنه غامر في نقلهم..

وبعد صراخ وتهديد أخذ أجرته من الرجال فقط كل عن أسرته، وأعفى دالية ومن لا يرافقها رجل أو شاب..

في منطقة ما، على طريق أسفلتي، كانت خيوط الفجر الأبيض تحدد أشكال الأجساد المنهكة، وتتوضح علائم القلق والخوف والرعب على الوجوه التي نزلت من القاطرة، وافترشت الأسفلت بانتظار شاحنات أخرى تقلهم إلى «المخيم»..

لم تأتِ الشاحنات ذاك النهار الطويل الشديد الحرارة.. لقد أرهقهم الحر والتعب والجوع والعطش، وعند المساء أتت شاحنات كبيرة، فهجموا كالمسعورين على خزانات المياه فيها يبتغون الماء ولا شيء غير الماء..

سارت بهم الشاحنات ساعات طويلة، ثم سارت على طرق ترابية إلى أن وصلت إلى نقطة فيها جنود..

قال أحدهم: انزلوا.. أنتم الآن في المخيم.. كل ثلاث عائلات لها خيمة واحدة..

وكانت ليلة بؤس.. انحشرت فيها دالية على فراش اسفنجي.. وكانت ثلاث عائلات تتقاسم خيمة صغيرة..

في الصباح بان جلياً بؤس المخيم وبؤس الحياة به.. صهريج ماء وحيد لعشرات الخيم، وحمامات مشتركة للعائلات، وأرض قفراء غبراء.. شمس حارقة نهاراً، وبرد صحراوي ليلاً.. والطابور الطويل يصطف كل يوم ساعات وساعات للحصول على وجبة طعام.. ويؤكل حتماً تلافياً للجوع والحرمان..

في ذاك المخيم تسجل كل روايات البؤس.. ارتوت أرضه بدموع الفقر والحسرة.. سطرت روايات في النفوس لم تقرأ بعد.. التفاصيل الصغيره تكفي لمئات المسرحيات.. المخيم نفسه مسرحية أخرجت ولم يمثلها أحد.. في المخيم -المسرح -الحياة ونقيضها.. كل الأضداد يختزلها ذلك المكان..

في المخيم -السجن- كانت الطفلة تكبر.. ابنة دالية أنقذها القدر وحده من عصابة كانت تخطف الأطفال للإتجار بأعضائهم.. كانت الطفلة سلوى أملها الوحيد.. كانت في الماضي تحلم أن تجعلها كالفراشة وترسلها إلى المدرسة.. نمت الطفلة دون علم.. لم تكن ثمة مدرسة في المخيم..

بعد سنوات صار عمر الطفلة أحد عشر عاماً بدت أكبر من عمرها.. بدت كأنها ثلاثة عشر عاماً..

همست جارة دالية قائلة: دالية ما رأيك بتزويج ابنتك؟..

قالت دالية: لكنها طفلة..

قالت الجاره: اسمعي.. أعرف رجلاً سمساراً يأخذكم من هذا الفقر والذل الذي أنتم به، كثيرات زوجن بناتهم وهن أصغر من ابنتك، إنهم يدفعون.. يدفعون كثيراً.. والبنت تعيش في قصر.. غداً سيأتي السمسار والعريس إلى المخيم..

في اليوم التالي وقفت سيارة سوداء كأنها القلعة أمام الخيمة، ونزل رجل في الخمسين وقال لدالية مشيرا إلى رجل تجاوز السبعين:

هذا هو العريس.. وهذه ألف دولار مهراً لابنتك.

لم ترضَ دالية.. تلعثمت بالكلام.. طفلة مقابل طاعن في السن؟..

قال الرجل الكبير: اعطيها ألفا آخر، وإجلب الكاتب يكتب الكتاب

همس الرجل في أذن دالية: اقبلي..اقبلي.. فالرجل ذو سطوة وجاه، ولا أحد يستطيع منعه.. ستخسرين ابنتك إلى الأبد.. يختطفها ولن يشفع لك أحد.. ألا تعلمي من هو طويل العمر؟..

حين رأت دالية الجنود يقتربون من السياره ويقبلون يد الرجل العجوز وهو يغدق عليهم المال، وأمام إشارات الجارة والسمسار..

قالت دالية: قبلت شريطة أن أغادر هذا المخيم..

ضحك العجوز وقال وقد بانت بعض أسنانه التي أكلها السوس:

حسنا سأفتح لك بيتاً في المدينة.. اصعدي..

غادرت السيارة المخيم، والدموع تنهمر شباباً من عيني دالية، وهي موقنة إنها ذاهبة إلى متاهة أخرى ضاع فيها أملها الوحيد (ابنتها) التي باعتها بثمن بخس..

على الطريق كادت أن تقول للعريس: يا طويل العمر.. ودي ارجع المخيم..

لكن -طويل العمر -قال لخادمه في المقعد الخلفي.:

هات.. هات..ناولنا ساندويش- الشاورما

صمّاء . . ولكن . .

هو مستور بين الناس وداخل النفوس، مُفارِقٌ للفرح، يقول عنه المؤمنون: إنّه ابتلاء أو امتحان في الحياة.. ويقول عنه الآخرون: إنّه نتيجةً لظلم بني البشر، وفي كلا الوصفين يُختصر فهو: كابوس وحمل ثقيل..

حمله النبي أيوب ثمانية عشر عاماً، وصار صفةً عبرت الأزمنة وحدود المكان..

«منتهى» الطفلة رقم ثمانية في ترتيب العائلة، سمّاها أبوها متمنياً أن تكون منتهى هي النهاية في سلسلة الأولاد، لكن الأم أضافت للعائلة ستة أولاد بعدها، فصارت العائلة أربعة عشر ولداً.. يأكلون الأخضر واليابس كالجراد كما يصفهم الأب، ويموؤن كالقطط كما تقول الأم..

كبرت منتهى.. صارت طفلة بجديلتين، ثمّ صارت في الخامسة عشرة، فتوردت وجنتاها وأينعت صباً وجمالاً، ونضجت فيها رائحة الأنثى، وانتشر عطر الصبا حتى وصل إلى ذلك الشاب «عدنان» الذي صار يلبس بذلته العسكرية ويتبختر على الطريق المقابلة لبيت منتهى، وبعد فترةٍ أتاها خاطباً، فبارك الجميع تلك الخطوة، وازداد إشراق وجه الصبيه وطلّتها جمالاً..

منتهى صارت عروساً حطت قدماها في قرية – كفرسوسة – القريبة من دمشق، وكانت تمني النفس بخلاصها من الكابوس الثقيل: الفقر وشقاء الأرض وتعب البيت، وارتضت بسعادة تلك الغرفة الوحيدة التي استأجرها عدنان، وصارت عالمها الخاص، وتحمّلت مرارة البعد عن القرية ورائحة الأهل، ومرارة الوقت الطويل الذي يقضيه عدنان غائباً عنها حيث يتركها وحدها رهينة الغرفة فجراً، ولا يأتِ إلاّ عصر اليوم التالي يقضيان ليلة ويذهب فجراً إلى عصر يوم تالٍ.

بدأت منتهى تحسّ بضيق المكان، وتطلب من زوجها أن يخرجها كل أسبوع ولو ساعات، لترى العالم وأن يشتري لها شيئاً غير البطاطا لتطبخ وتأكل، لكن الرجل تجاهل رغبتها وعزّ عليها أن تشتهي، وقد صارت حاملاً بجنين وأن يكن بمقدورها أن تشتري شيئاً من الدكان المجاور، ومع الأيام صار عدنان أكثر عصبية ونزقاً، وأصبحت تضيق بالبخل الذي يوسمه، وصارت تحلم أن تشتري شيئاً لوليدها القادم، لكن أحلامها البسيطة ذرتها الرياح وتلاشت حين عرفت أن زوجها يضيع راتبه في القمار وفي السكر، وكثيراً ما ضربها لأنها رفضت أن تبيع قرطها الذهبي هدية عرسها، فسرقه وباعه، ثمّ سرق منديلاً حريرياً لها وباعه، وحين عاندته انهال ضرباً على رأسها وأذنيها بخشبة قاسية افقدها الوعي، وأفقدها بعضاً من قدرة على السمع..

ثلاث سنواتٍ مرّت زارت خلالها القرية مرّةً واحدةً ظهرت خلالها شاحبةً صفراء اللون، هزيلةً، ثقيلة الخطو والسمع، ثلاث سنوات مع ثلاثة أطفال ورجلٍ سكير مقامر، قاسٍ، مع شظف العيش، ودناءة النفس.. مع كابوس لا مهرب منه، لم يكن ثمّة مخرج إلا العمل، فقادتها خطاها إلى امرأة خيّاطة ساعدتها وعلمتها أن تخيط الثياب، وصارت تعطيها عملاً إلى البيت فازداد دخلها، وصارت تدفع أجار البيت لصاحبه الذي كان يفترسها بعينيه مهدداً بطردها، وتجاوزت كابوس الشارع الذي يحاصرها بعيون رجاله الذئبيّة، وأسكتت ألسنة الأفاعي التي تقول: جاءت الصماء.. مرّت الصماء.. صمّاء.. ولكنها لذيذة.. حلوة وأحلى من العسل

منتهى واصلت ليلها بنهارها، علمت أولادها الذين صاروا خمسة، كانت ترى في تعليم أولادها قارب النجاة من حياتهم الجدباء، وقد حملت وزر «عدنان» وكابوس القمار وقهر البيئة المحيطة كأنشوطة المشنقة، وقهر القانون الذي يظل غائباً عن حماية الطفولة وبؤس الحياة، قانون الأفعى ذات الرؤوس..

مرّت الأعوام الكثيره قبل أن ينتهي عدنان إلى مرضه الذي أودى بحياته حيث أنهكت الخمرة وظائف الكبد، ومنتهى لم تتخلَّ عن عدنان طيلة أشهر مرضه، كانت تشفق عليه

وترعاه، كأنها لم تذق منه الأمرين، وفي قريتها كانت مثالاً للصبر والعطاء، التفاني والهدوء..

كان وصفها: صمّاء.. ولكنها عظيمة..

صماء.. ولكنها أمثولة..

ذات أمسية أهداها ابنها البكر سمّاعة يخفّف صممها، وجلست منتهى تملؤها النشوة لأول مرة من زمن طويل، وشكرت ابنها والعلماء الذين اخترعوا السماعة، كانت مسرورة لأنها عرفت قيمة العلم في الحياة، وهي التي لم تدخل مدرسةً قط..

وسألت ابنها الشاب: ماذا تقرأ يا ولدي؟.

قال لها: كتاب عن الديكتاتورية..

قالت:وماذا تعني هذه الكلمة؟.

قال: طريقة حكمٍ يملي فيها القوي رأيه، ويلغي من يعارضه بالقوة، يفرض لونه وأحكامه.. رأيه مقدّس، يحكم بالحديد والنار..

والديكتاتورية ثقافة في الأسرة والأسواق والمجتمع، يخضع فيها الضعيف للقوي، نراها في العادات وعند رجالات همهم الثروة والتسلط دون علم أو جدارة، وتغيب الأخلاق والحرية، يموت الإبداع، يعم الجهل، ويفسد القضاء والعلم، ويكون الرجل المناسب في المكان غير المناسب، تنعدم الأخلاق، ويسود الفساد والخوف والرعب..

ويصفها الكتاب يا أمي الغالية: بأنها كابوس العصر..

قالت منتهى بحسرة وحزن: أنا من عرفت وعشت هذا الكابوس منذ الصغر..

ضوايا

حزيران ١٩٦٧

.. وكان المقهى، أجل مقهى البستان ذاته دون غيره الملتقى للـ(المثقفين)، الشعراء منهم والفنانون والمتفذلكون، المتحاورون في السياسة والنقّاد لما كتبته الجرائد، وأيضاً المتسكعون حيث ينتهي بهم تسكعهم في ذات المقهى..

والموضوع الرئيس السائد وربما الوحيد هو: الصدمة.. الانكسار.. هزيمة الحرب..

والسؤال الكبير وربما الوحيد: هل هي هزيمة الجيوش أم الأنظمة أم الأيديولوجيا، أم هزيمةٌ للشعوب أم لتاريخها وثقافتها؟..

كما لكل مدينة مقهى يؤم إليه مثقفوها، هكذا أضحت مقاهي المدن منابر لنقاشات هزيمة الحرب أو النكسة، كما سُمّيّتْ، كذلك في هذه المدينة «البستان» مقهى للمثقفين الفارغة جيوبهم إلا من ثمن جريدة وفنجان قهوة «سادة»، يكفي أن تتأبط كتاباً وجريدة وعلبة دخان ومحفظةً صغيرة كي تنضم وتسمع آخر ما قرأه فلان، أو ما صدر عن دار نشرٍ، وعن معارض الكتب، أو آخر مسرحية يتباهى في نقدها المتحدث الذي تحسبه «فيلسوفاً» في النقد والتحليل..

أعترفُ أنا عبودي القلق في هذا المجتمع القلق -المنهزم - أنني مدين لذاك المقهى، حيث أنني أمضيت منه ساعات طوال، ولزمنٍ طويل قارئاً ومطالعاً وعارفاً لآراء الآخرين وتنوع المعارف لديهم، قبل أن أكتشف إنّ هذه الأجواء تزيد القلق والأسئلة التي لن تجد لها أجوبةً لدى «النخبة» التي تفيض تناقضاً، ولا تثبت على قضية أو لونٍ معرفي، أو سلوك مميز جديرٍ كي يصبح أمثولةً وحكمة..

«ضوايا» الجميلة، الحسناء، الجذابة، رفيقةٌ لصديقي الملازم للمقهى كل يوم، جلست برفقتهما ساعات كثيرة، كانت قارئة جيدة، قرأت الكثير: فلسفةً وشعراً وسياسةً، وجادلتنا طويلاً، دافعت عن حريّة المرأة، واعتبرت إنّ الهزيمة هي هزيمة للرجل فقط؟!. لم أكن معجباً بسلوكها، كانت بعيدةً عن أهلها، تتباهى بسرقة الكتب، وبالسهر طويلاً، وتعتبر أنّ من يخالفها الرأي أحمق وتافه، وكانت تنتقل من طاولة إلى أخرى تنتزع نقوداً من هذا وذاك كي تدفع ثمن وجبة وعلبة تبغ، ثم طلبت من صديقي غسان (الطفران) مبلغاً

كبيراً لشراء ثياب لها، ثمّ ذهبت إلى غيره وغيره.. وأنا نفسي رددتها مرات ومرات وفي آخر مرّة قالت لي: «العمى شو حيوان، بس شي مرّة أعطيني ولا تخجلني؟..»

تمضي سنوات عشر، وعبودي ابتعد عن مجلسه في المقهى، وصار بعيداً عن تلك الأجواء، ويضطر عبودي لضغط الحياة كي يعمل سائقاً لسيارة أجرة «تاكسي» وفي إحدى الأماسي كان ينتقل بسيارته في شارع «ميسلون» حين أومأت له صبيّةٌ، فأوقف السيّارة، ولمّا صعدت الصبيّة وتلاقت نظراتهما، عرفها.. إنها ضوايا وهي عرفته وبادرته:

كيفك؟.. شو أخبارك؟..

قال لها: الحمد لله إلى أين تريدين الذهاب؟..

قالت: إلى حضنٍ دافئ على سرير مع كأس من الخمرة اللذيذة..وحظّي أن أكون معك هذه الليلة.. لا تخف.. السعر ليس مرتفعاً. .

أوقف السيارة على يمين الطريق: تفضلي بالنزول، أنا لا أصلح لهذا..

نظرت إليه، فتحت الباب، صفقته بقوة قائلةً:

روح يلعن أمك وأختك يا ابن الـــ..

تمضي سنوات أُخرى، وعبودي الباحث عن وظيفة دائمة تناسب شهادته وخبرته وقد رآها أخيراً، قدّم أوراقه وخاض امتحان الوظيفة بنجاح باهر، وكان واثقاً من قدرته على امتحانه الأخير في مقابلة مدير المؤسسة، وفي الوقت المخصص دخل إلى مكتب المدير للمقابلة وهناك رآها – ضوايا – مديرة مكتب السيد المدير..

نظرت إليه.. ابتسمت له ابتسامة عريضة:

أهلاً وسهلاً عبودي، تفضل إلى غرفة السيد المدير

حين خرج عبودي من غرفة السيد المدير كان في انتظاره رجلان.. يضحكان مع الآنسة ضوايا.. أخذاه في رحلة دامت سنوات كثيرة.. خرج منها كهلاً وقد كتب خلالها روايته الوحيده التي بدأها:

ذات حزيران منذ خمسين عاماً.. جلسنا في مقهى البستان..

وذات خريف منذ سبعة أعوام.. جلسوا في مقهى البستان

حزيران–٢٠١٨

في ذات المقهى، رجلان عجوزان –غسان وعبودي –يرتشفان فنجاني قهوه وينظران إلى مقاعد كانت يوماً ما تظللها غيمة من قصيدة وأحلام منضدة كحب الرمان..

طاسة الرعبة

وما أدراك ما طاسة الرعبة وفعلها العجيب؟.

منذ مائتي عام كانت طاسة الرعبة أمانةً لدى أم فؤاد العجان في حي القلعة باللاذقية مخصصة لكل أحياء المدينة، وكانت طاسة الرعبة الأخرى أمانةً في بيت «أبو نجيب» في قرية القنجرة، مخصصة للقرية ولكل القرى المحيطة..

والطاسة عبارة عن وعاء من الفضة يتسع ليتراً من الماء تقريباً، وهذا الوعاء مرصّع ببعض النقوش وبعضٍ من أسماء الله الحسنى، وعلى طاسة «أبو نجيب» آية الكرسي والبسملة.

إذا مسّ شيطان أو جني وضرب على عقل أحدهم وصار مرعوباً أو مختلاً أو عصبياً ذا نزعةٍ عدوانية، أو صار يهذي ويتصرف كالأبله أو غير ذلك من الأمراض العصبية أو النفسية، فما على المريض إلا العلاج بطاسة الرعبة، وحسب شهود ذلك الوقت فقد شفيت الصبية الجميلة «خديجة» التي فجأةً خلعت ثيابها وصارت تمشي عارية دون لباس، وبشعر أشقر منكوش، وتدور في حارة المختار في العوينه وفي العنابة وحارة الشحادين.. لقد جنت فجأة وتاهت، لا تعقل أي شيء، فحاصروها في غرفة وسقوها ماء في طاسة الرعبة.. ويقال: أنها شفيت بعد أربعين يوماً.

أمّا -كفا إم سلطون - فقد كانت راجعةً إلى القريه مساءً تحمل زيتوناً في صرة جمعتها من تحت أشجار الزيتون بعد انتهاء الموسم، وعند أسفل وادي الأحمر، عند شجر الريحان الكثيف هاجمتها الضبعة الأنثى فجأةً تلك الحيوانة المخيفة والمرعبة، فرمت صرتها من فوق رأسها وصارت تركض وتزعق خوفاً ورعباً، والضبعة في أثرها تحاول مسكها، ولم تعرف -كفا- كيف رمت نفسها داخل أشجار الصبار ذي الأشواك الحادة، وبقيت هناك تنزف جروحها إلى الصباح وهي مستيقظة، والضبعة خارج شجيرات الصبّار تجعر بصوتها المقرف المخيف، ثم طلع الصباح وبحثوا عن -كفا- فوجدوها وقد فقدت النطق والأمان، وكان لابد من طاسة الرعبة كي تشرب فيها أربعين يوماً وتستعيد وعيها..

ولطاسة الرعبه حكايا.. وحكايا، منها إنّ طفلاً يتيماً كانت زوجة أبيه تسجنه في خم الدجاج كل يوم حين يغيب زوجها عن العمل، إلى أن اكتشف خال الصبي الوضع فسقاه بطاسة الرعبة، وأيضاً الولد الذي لم يحفظ -سورة ياسين - عند الشيخ الذي كان يضربه

بعصاه الغليظة كل يوم، مما أرعب الولد وصارت لديه عقدة الخوف من الشيخ، فكان لابد من إحضار طاسة الرعبة..

اختفت طاسة الرعبة، لم يعد يشرب بها أحدٌ، وحسب أحد الأطباء فقد كان تأثيرها شافياً لأنها وسيلة نفسية إيمانية، وثانياً: لأن المريض يجب عليه أن يشرب سبع مرات كل يوم، يعني سبعة ليترات لمدة سبعة أيام، وهذه طريقة علمية في المعالجه بكثرة السوائل..

تقدم العلم ولكن الأمراض النفسيّة والعصبية ازدادت وتوسعت وصعب شفاؤها وحين ذكرنا طاسة الرعبة.. أطرق صاحبي رأسه ثمّ رفعه قائلاً:

لا يوجد في هذا العالم العربي والإسلامي طبيب قادر أن يشفي أمراضه النفسية والعصبية ولا مليون طاسة رعبة.. طالما أنّ أصحاب الجلالة والفخامة والسمو وأنّ حكامنا الصغار والكبار هم مصدر الرعب والفقر والجهل والتعاسة.. وهم أصحاب السجون وأسباب القلق والتشرد والضياع.. وعندهم يغيب الأمان وتصبح الأوطان أرضاً خصبةً للبلاء والعقد النفسية.

قال صاحبي: إذا أردت أن تصنع طاسة رعب، وإذا بتحب حدا أن يفقد عقله ويجن.. فاكتب اسم جلالته أو فخامته على طاسة الشرب، واسقِ صاحبك فتصبح النتيجة حقيقة:

وتصير فوراً طاسة الرعبة

الدايه أم حبيب

الفراشُ ضيّقٌ، ولا غطاءَ في أماسي الصيف، والقناديل تتدلّى من السماء، نعدّها نحن الأطفال، نُخطىءُ العدَّ ونعدّها مرات ومرات..

الفراش ضيّقٌ، تأخذ الجدّةُ السمينة نصف مساحتهِ وأكثر، وثلاثة أطفال يستلقون قربها ينتظرون الحكاية، حكايةً تنقلهم إلى الخيال الأرحب، وإلى اللوحات الكثيرة التي ترسمها مخيّلةٌ لا تلبث أن تمحوها لوحات أخرى، وأخرى عديدة تتماوج متداخلة وتتلاشى حين يغلب سلطان النوم أجفان الأطفال..

كادت تلك الليلة أن تخلو من الحكايه لأن «أمير» قال: ستي، شو اسم ستك

قالت الجدّة: اسمها كوثر أم رمانة..

قال أمير: كوثر أم رمانة الخربانة..

ضحكنا وردّدنا وراءه: أم رمانة الخربانة.. أم رمانة الخربانة

تظاهرت الجدّة بالزعل.. وبعد إلحاح واعتذار سردت الحكاية، وقبل أن تحكيها تمتمتْ هامسةً قائلةً: (قل أعوذ برب الفلقْ من شرِّ ما خلق) وتابعت:

في أيام جدتي «أم رمانة» الله يرحمها، كان الوالي التركي يضع في كل قضاء (قائممقام) هو نائب له، كل القرى والمدن تتبع له، وهو الحاكم على الناس وإليه تُعطى الهبات ويأخذ «الميري» (حصة مفروضة على الفلاحين من محصول القمح كل عام) ولديه عناصر (الجندرمة) الشرطة، على خيولهم يجولون ويعسفون بالناس ظلماً وجشعاً، والناس تكرههم وتهرب من تسلّطهم..

والقائممقام هو من يُسمي مختار القرى وهو الذي يحاسبه، والمختار هو الواسطة والمسؤول عن تنفيذ الأوامر..

(عين الجرف) ضيعتنا، مات مختارها، وبعد ثلاثة أيامٍ جاءت - الجندرمة - أخذوا أبو النعيم إلى -القائممقام- أخذوه ماشياً وهم يمتطمون جيادهم، وحين وصل كان منهكاً وجائعاً وعطشاً للماء، كاد حلقهُ أن يجِفَّ من الظمأ، طلب ماءً فلم يسقِهِ أحدٌ.. أوقفوه تحت أشعةِ تموز اللاهبة، بقي أمام خان الأحصنة حتى غابت الشمس، وكلّما سأل جندرما كان يتلقى نظرات قرف واستهزاء.. غلبه النعاس فنام هناك في الاسطبل قليلاً واستيقظ على ركلةٍ قويّةٍ من عنصر جندرما غليظ الجسم:

ليش نايم ولاه، مين سمح لك؟..

جلس أبو النعيم، ودّ لو يطلب ماءً، كان خائفاً تراوده الأسئلة وتقلقهُ.

صاحت الديكة وأبو النعيم جالساً القرفصاء.. ثمّ تبول في مكانه خشية من التنقّل في الاسطبل، ثمّ طلع الصباح وقد أخذ التعب والعطش منه كل مأخذ، وجاءت - الجندرمة - أخذوا أحصنتهم ومضوا، ومنهم من بصق عليه وعلى هيئته قائلاً بلكنةٍ تركية:

ياهو انتي شو عامله للبيك.. آه.. آه؟..

عند الظهيرةِ جاؤوا، أخذوه مقيد اليدين من الخلف إلى - القائممقام - إلى غرفة بوسع بيدر القرية وهناك كان الآغا -نائب الوالي- القائممقام تبدو عليه علائم السلطة والقوه والترف، يجلس على كرسي مزخرف عالٍ .

قال لأبي النعيم بلغة عربية مبتورة متداخلة مع مفردات تركية كثيرة:

اسمع انتي شو عامل؟..

قال أبو النعيم: والله ماني عامل شيء

قهقه القائممقام: نحنُ نعرف كل شيء، كل شيء

: بدي اشرب ماء يا مولانا، قال أبو النعيم مكسوراً

حمل القائممقام كأساً مملوءاً ماءً.. تقدّم وسكبه فوق رأس أبي النعيم:

ليش خبأت - الميري - هذه السنه.. آه

ارتبك الرجل وتمتم.. أنا.. أنا.. ما..

: نحن نعرف كل شيء، كل شيء، ونعرف أنّ جرحاً كبيراً له علامة تحت كتفك الأيمن، يا شيطان..

تفاجأ أبو النعيم: كيف يعرفون ذلك؟

ونعرف أنك قطعت أشجار الصنوبر.. وهذه للسلطان المعظّم ولا يجوز قطعها..

و هبه.. هههه ونعرف أنّ على مؤخرة زوجتك أم النعيم شامةً سوداء بحجم الليرة..

كاد أن يصعق الرجل: لايمكن.. مستحيل.. لا أحد يعرف ذلك..

تقدّم القائممقام، فكّ قيد الرجل، طلب له ماء وهمس في أذنه:

أنت راح تكون مختار عين الجرف من الآن.. ونحن نعتمد عليك.. تمام ..

تمام أفندم.. تمام أفندم..

وهكذا صار أبو النعيم يخدم الأتراك مختاراً لأربعين عاماً تلت وهو مّتيقنٌ أنّ معلومات القائممقام قد نقلها من يلبس طاقيّة الإخفاء

أمّا الجدّة فكانت تعلم أن مصدر المعلومات هي(الداية) -أم حبيب- التي ساعدت وأشرفت على ولادات كل أطفال عين الجرف بما فيهم المختار وزوجته أم الشامة..

لكن الجدةّ أكدت لنا حين كبرنا، أنّ الداية - أم حبيب- كانت تذهب إلى القائممقام مع الجندرمة بعد أن تلبس طاقية الإخفاء..

--------تعليقًا

طاقية الإخفاء

الحكاية الأولى : بلّوط اللعين. .

ربما نسجت الكثير من الحكايا، كما نسجت مناديلها من الصوف وخيطان الحرير.. برويّةٍ وحبكةٍ صالحة كي تجذبنا نحن الأطفال، وكي نحلّقَ بخيالنا وننام على أحلام وخيالاتٍ طفولية.. ومبهرة لعقولنا الصغيرة..

هكذا كانت ستي الختيارة تعيد علينا حكاية الرجل الذي يختفي عن العيون حين يلبس طاقيّة الإخفاء.. طاقيّةٌ فوق الرأس تخفي جسده عن العيون.. تجعله يرى الناس.. ويتجوّل بينهم.. يأكل من طعامهم ويشرب من مائهم.. يسمع أحاديثهم ويشهد على أعمالهم.. ويعاقب المنحرفين منهم.. يضربهم أحياناً ويقيدهم إن سرقوا.. أو يغلق عليهم الأبواب قبل أن يُنفّذوا شراً أضمروه لغيرهم.. ويصلح بطريقته الخاصه خصاماً بين رجلٍ وامرأته.. أو بين أخوة تخاصموا.. أو أبناء تمرّدوا على آبائهم..

في المساءات الطويلة كنا نلتصق بالجدّة ونطلب منها أن تعيد الحكايا.. وأن تعطينا الجديد المختلف من الحكايا، وحين تسترسل في حكاياها نغفو ونحن نحلم بخيالنا إلى عوالم تشبه الأساطير، ولا نعلم ما هي النهاية، لكننا نعلم أن صاحب الطاقية رجلٌ من غير عصرنا، من عصرٍ جميل مضى، رجلٌ لا يحب الظلم، ويكرهُ الشرّ والقتال.. رجلٌ لا يؤذِ الأطفال ولا النساء ولا كبار السن ..

أجمل الحكايا حكاية (بلوط) التي نلحُّ على سماعها مرّاتٍ ومرّات، ولكنّ الجدة قبل أن تبدأ بسردها علينا أولاً أن نلعن الشيطان الرجيم وأعوانه.. وأن نذكر اسم الله.. وأن نترحّم على (جابر) الذي يلبس طاقية الإخفاء لأنّه رجلٌ مؤمنٌ، ولو لم يكن مؤمناً ما استطاع أن يحصل على مكرمةِ الحصول على طاقيّة الإخفاء، وتطلب منّا أن نتعهدَ بأن نسمع كلام الأهل ولا نخالفهم بشيء، فتقول:

لبس جابر طاقيّة الإخفاء يوماً.. وخرج في أحياء المنطقة، وأمام أحد البيوت رأى رجلاً يحمل جرّةً ويعلي صوته غاضباً قائلاً لرجلٍ أمامه: اللعنة عليك، أما تخشى الحرام، هذه جرّة الزيت التي اشتريتها منك.. لماذا وضعت الماء في نصفها ووضعت الزيت فوقه، لقد طفا الزيت على وجه الماء لأنها أخفُّ منهُ.. وأنا اشتريت ماءً بدلاً من الزيت.

أنكر البائع وراوغ وعلت أصواتهما وكادا أن يتضاربا، واجتمع نفرٌ من الرجال لكنّهم عجزوا عن حلّ المشكلة، وبعد أخذٍ وردٍ، رجع الشاري وهو يشكو أمره لله ..

صار (جابر) يراقب كل فترةٍ بائع الزيت حتى شاهده في السوق يبيعُ تمراً ورأى أنَّ الرجل يخلو إلى ركنٍ ويضع حجارةً أسفل (القِفّة) ويضع فوقها التمر، ويبيع المحتوى كأنّه تمرٌ كلّهُ، وإذا اكتشف الشاري أنّ تحت تمرِه حجارةً واشتكى من فعل (بلّوط) وتقاتل معه فإنّ البائع (بلّوط) ينفي فعلته ويصرخ:

لست أنا من عمل هذا، أنا اشتريته هكذا وبعته هكذا فيذهب الشاري لاعناً بلوط ولاعناً حظّه السيّء..

تابع جابر أثر بلّوط، مشى خلفه دون أن يراه، ثمّ رآه يدخل بيتاً، فدخل وراءه، كانت في البيت امرأة وبضعة أطفال وعرف جابر أن المرأة أرملةٌ وإنّ الأطفال يتامى وهذا بلّوط يساوم المرأة: ألم تقتنعي وتبيعيني الأرض، لك حصة في أرضي، ولن يجرؤ أحدٌ على شرائها وأنا أحقُ بها من غيري..

قالت المرأة بانكسار: ولكنك لم تدفع إلا ربع قيمتها.. والأرض مال اليتامى..

قال بلّوط: أنت حرّة، اقبلي النصيحة وانتفعي بالثمن، وغداً قد لا أدفع هذا المبلغ..

ومضى عائداً إلى السوق وجلس على مصطبةٍ بين عدة رجال، وعنها تقدّم جابر ودغدغ بأصابعه خاصرة بلّوط، فارتجفت خاصرته ثمّ دغدغ خاصرته الأخرى فتحرك جذع بلوط ونظر حوله فلم يرَ شيئاً، كرّر جابر دغدغته لخاصرة بلوط اليمنى فصار يضحك، وضحك أيضاً حين لعبت أصابع جابر خاصرته اليسرى..

التفت الآخرون: لماذا يضحك بلوط؟..

صار جابر يدغدغ بلوطاً في خواصره وتحت إبطيه وفي ظهره وأماكن أخرى حسّاسة، وبلوط يتقافز في مجلسه وهو يضحك ويضرب بيديه على جسده ليبعد الأصابع التي تدغدغه.. والآخرون بدؤوا بالضحك أيضاً وسط حيرتهم:

ما الذي يجعل بلوط يضحك ويضرب على جنبيه كالأبله، ما الذي جعله يستلقي أرضاً ويتقلّبُ؟..

وبلّوط يضحك ثمَّ يقهقهُ ثمّ يصرخ مُتألماً ثمّ يبكي ثمّ يزدادّ عويلاً وهو يلطم جنبيه وإبطيه ومواضع أخرى في جسده مستنجداً ومستغيثاً، يكاد شهيقهُ أن يخنقه وروحه أن تخرج من صدره، لقد تعفَّرَ بالترابِ والأوساخ..

قال أحدهم: لقد أصابه مسٌّ من الجنون..

وقال آخر: الله يستر، خذوه إلى شيخ المدينة كي يقرأ عليه تعويذةً تنجيه..

وقالوا.. وقالوا، لكنَّ أحداً لم يعلم أنَّ الذي عاقبه على أفعاله هو جابر صاحب طاقية الإخفاء..

قالت الجدّة لنفسها وهي تغطي الأطفال:

لقد انتقمتُ منك يا من أكل أموال اليتامى يا بلّوط اللعين..

طوني الجميل . . (2)

في حضرته تتبدل الأشياء: ملامح الوجه، النظرات، وجيب القلب..

في حضرته ينشط الخيال، الحلم، الرغبات، ويرهف السمع لموسيقاه الأبدية الخالدة..

في اتساع المدى الأزرق تنتقل الرؤى إلى هناك خلف خط التقاء الأزرقين.. الأفق الذي لا يثبت في الزمان ولا في المكان..

هو ذا البحر سفر الأسفار، أغنية التجدد والارتقاء..

يقول طوني الجميل: البحر هو حكاية الحكايا، الكتاب الذي لا يقرأ، وحدة النقائض، وهو البساطة والغضب..

يقول طوني الجميل: البحر شوق لا ينتهِ.. منه وإليه دفينة النفس والأسرار..

:يا طوني، هذه فلسفة وشاعرية

يقول طوني: أنا لا أسبح في البحر.. هو يسبح بي.. هويغوص في داخلي.. أنا لا أبحث عن لؤلؤه ومرجانه.. يكتمل بي ويتم وجوده لأجلي

: هي أحجية يا طوني؟.. فسر لنا ذلك..

طوني لا يفسر البحر.. طوني يهدي البحر ما لا يحمل.. ويأخذ قواقع غريبة لعربته فقط..

وطوني هذا رجل في العقد الخامس من العمر، جميل الشكل.. طَلِق المحيًّا.. وردي الوجه.. أشقر الشعر..

رأيته مرات كثيرة مع عربته التي يشكل معها وحدة متكاملة. عربة خشبية مثل عربة بائع خضار متجول.. فوقها خيمة من قماش.. تعلوها أعلام صغيرة بكل الألوان.

تحمل العربة أشياء تعكس دفينة طوني المفقودة.. أشياء دلالتها تحيط بأزمنة وأمكنة يتوق إليها.. أشياء تلامس عهد الطفولة.. مراوح صغيرة ملونة على أعواد تدور مع الهواء.. بالونات منفوخة مملؤة هواء.. ألعاب أطفال ودمى قلَّ وجودها.. فوق العربة أمشاط وربطات شعر وزجاجات عطر صغيرة.. فوقها مكنسة من القش وأخرى من البلان.. جرار فخارية بعضها مكسور.. ولاعات قديمة وكبريت وعلك الصنوبر وشمع وبخور.. قواقع وصدف بحرية وخيطان ومسامير.. أكياس وقصب خيزران.. أشياء لا تحصى مرتبة حسب هواه، كل هذا ليس للبيع!!..

كل أحياء المدينة تعرفه أنيقاً رغم فقره، مبتسماً للصغير والكبير.. ينحني أحد ما على العربة يأخذ شيئاً ويترك نقوداً، أو يضع طعاماً حمله لأجل طوني.. لا يرد طلباً لطفل أراد كرة أو علماً، ولا لفتاة أرادت زجاجة كحل صغيرة.

عرفت طوني الجميل عند الشاطئ الشمالي، كنت بحاجة إلى علبة كبريت فأردت شراءها لكنه رفض البيع ورفض المناقشة. ثم تقدم إلى رجل قريب من العربة، وتحدث إليه بالفرنسية! وعلمت أن طوني يتقن ثلاث لغات!..

*شكراً لمن ذكرني بالجميل طوني..

طيشور[23]

لم أعرف لماذا اختار أحد أجدادنا أن يكون قبره في ذاك المكان البعيد عن القرية، قبره منفرد، اختاره بعناية، هناك فوق هضبةٍ عالية، تحت شجرة دلب كبيرة، أضاف إلى جانبها ثلاث شجرات من الصنوبر وشجرة ريحان، وأحضر حجارةً رملية أوصى بناء قبره منها بعد وفاته ..

تقول زيفة التي عمّرت مائة وعشرين عاماً أنها سمعت عن حكاية حبٍ بين طيشور وجمانة الجميلة، وأنّ الناس حين تشاهد الدخان يعلو فوق الهضبة، عندها يعرفون إن (طيشور) هناك يشوي عصافيرً اصطادها.. أو أنه يشوي باقات الحمّص الأخضر.. أو عرانيس الذرة الصفراء لحبيبته «جمانة» وربما أشعل ناراً كي يمسك بالـ (طافوحة)[24] أحد طيور – الوروار – الجميله، لأن الدخان يجذب تلك الطيور فائقة الحسن..

وتقول رواية أخرى أنّ (طيشور) قد اختار ذلك الموقع في حياته لعلو المكان وجماله، حيث هناك الأفق بعيد، والفضاء واسع، والهواء منعش، والهدوء سيّد المكان، وهذا يناسب طبيعته الحالمة، ونفسه الشاعرية، حيث كان يُسمع منه قصائدُ شعرٍ ومواويل..

هذه حكايا جانبيّة عن طيشور، أمّا الحكاية الحقيقيه فإنّ الرجل كان مثار جدلٍ وتفرّدٍ في القرية، كان من القلائل الذين يحسنون القراءة والكتابة، وكان يجادل الكبار في موروثهم وثقافتهم، ويرفض كل ما يخالف المنطق و(الحقيقة) كما يقول، وإنّ تحليلاً ما إذا لم يوافق العقل– المقدّس من الله – فهو يحمل الخطأ ومرفوض في الحياة..

كان السيد طيشور في المنطقة مشهوراً في الحفظ وفي النقد، مما أربك الكبار والشيوخ، واعتبروه – مخالفاً – ومتطاولاً على – الثقاة – من العلماء ومن هنا أتى وصفه واسمه الجديد..

---

[23] طيشور: كلمة متداولة محلياً تعني: المنفرد، خارج السرب..

[24] الطافوحة: حفرة صغيرة مموهة لصيد الطيور..

القضية الكبرى التي أشعلت الصراع كانت مع الحكيم (مرهج) الذي يعتمد في معالجة المرضى على مبدأ واحد هو حبس الشيطان الذي يركب المريض في زجاجة، وتخليص المريض من علّة المرض الوحيدة بحبس الشيطان في الزجاجة..

الحكيم كان يقول: إن الأمراض كلها أوهام، سببها الشيطان، وإزالة الوهم من المريض بأية طريقة هي سبيل وحيد للشفاء، وكان يعتبر أنّ «طيشوراً» يقطع باب الرزق عنه..

السيد طيشور يعترف بأن بعضاً من الأمراض أساسه نفسي وتوهّم، لكنه يرفض المعالجة لأمراض البدن الداخلية والخارجية بهذا الوهم، ولديه القناعة المطلقة التي تقول: من السخرية أن توهم الناس بأنك تستطيع أن تحبس الشيطان في زجاجة، فالشيطان هو في صفاته، وليس في تشخيصه، الشيطان هو الكذب والنفاق والتسلط على الناس، هو الوسواس في الصدور، هو الجهل في العلوم ومعالجة الأمراض يا سيد مرهج..

وأنت يا حكيم مرهج انت والقائممقام[25] والوالي وأعوانه شياطين هذه البلاد ..

لم يكتفِ طيشور أفندي بالمساجلة، وإنما كتب مخطوطاً ونسخه حول أفكاره.. أسهب فيه عن موضوع العقل والنقل، وعن تجليات الشيطان في السلوك والأفعال.. في الإنسان.. في الوالي وزبانيته.. في القتل والذبح والسلب والتسلط على رقاب الناس وأرزاقهم وأعراضهم.. وأن الجهل والكسل والظلم هي من لعائن الشيطان الكامنة في داخل النفس.. فالخلاص من صفاته خلاص عقلي أولاً.. وفعل عملي ضد الوالي والحكيم مرهج وأمثاله الذين يوهمون الناس ويتربصون بهم..

طيشور المحاصر، المحارب، الملعون من أهل زمانه، اختار مكان قبره وشاهدة القبر التي كتب عليها:

« أنا مازعلان منكم..

أنا زعلان عليكم.. »

---

[25] قائممقام: مدير منطقة أيام الحكم العثماني

فدّان «أبو مالك» - الأكحل

متعة هي. .

مُتعةٌ مُنعشة، مؤثرة، آخاذة، وسحرها يأخذك إليها، يحتضنُكَ، تغوص فيها، تختفي في هدوئها، وتُبحر في بهائها..

مُتعة أن تستلقي، كما (أبو مالك) في ليالي الصيف فوق الفراش، نظرك يمتدُّ إلى هذا الفضاء الواسع وسع الأحلام، وسع الجمال، وسع الأمل، ووسع الأسئلة إلى السماء حيث النجوم تتلألأُ، ينوسُ ضوؤها ويتسع، تلك القناديلُ الزاهية التي تبتسم لأخواتها دائماً.. التي من عليائها تنادي السهارى والحالمين إليها..

تلك زينب.. وهذه خديجة.. وأختها علياء.. وتلك القصيّة الشقيّة (عبلة).. هذه بعض أسماء النجمات التي اعتاد أبو مالك أن يُسمي نجماته..

أسرةُ أبي مالكٍ تترك القرية في بداية كل صيف - كما كل الأُسر - تتفرّقُ في كروم التين والزيتون، كل أسرةٍ في كرمٍ تملكهُ أو تستأجره، تغادر القرية الضنينةَ بالماء، حول القرية في كروم الزيتون هناك الماء متوفرٌ من آبارٍ قليلة العمق.. حفروها فنضحت بالماء الذي يكفي حاجات الأسرة ودوابها. .

من بداية حزيران يكون أبو مالك قد استقرّ في كرمهِ، هنا المكان واسعٌ، مريحٌ للنوم يزرعون به بعض خضار الصيف، وهنا المجال واسعٌ للعب الأطفال ذوي الحركة والنشاط الدائمين..

أبو مالك يقضي خمسة أشهرٍ في كرم التين والزيتون.. وفي نفس المكان.. يسهر الليالي مع نجماته ومع القمر أحياناً، يبثّها شوقه وأحلامه والأمنياتْ.. يسهر متعةَ التحليق في هذا الفضاء الرحب.. يسهر أحياناً حتى يتحوّل الفضاء إلى لون الفجر الفضيّ ويأتي بعده لون الشفق الجميل.. لون الشروق..

أبو مالك تلك الليلة كان مُتعباً من العمل في نهار قائظٍ وجاف.. التحف سماءهُ وغازل نجماته.. وغفا..

قبل أن يطلَّ القمر، أفاق على شيءٍ رطب يجري على قدمه، نظر فإذ هو العجل الذي يُدلِّلُه «الأكحل» الذي يربيه وقد أفلتَ من مكانه، فأخذه وربطه حيث الشجرة، ورجع يسلتقي على فراشهِ..

وبعد ساعة أو أكثر استغرق أبو مالك في النوم، ومرّةً ثانيةً أفاق على سائلٍ رطبٍ يبللُ وجههُ وإذ بالعجل يمسح بلسانه وجه أبي مالك الذي فتح عينيهِ:

أنتَ ثانيةً!! اللعنةُ عليك..

ربط العجل مرّةً ثانية وعاد للنوم، وإذ به يصحو على وقع خُطا قادمةٍ من حيثُ مربط العجل وقد تشخَّصَ له رأس العجل كرأس إنسان اقترب من فراش أبي مالك:

ستذبحني بعد غدٍ في العيد الكبير، أرجو أن لا تفعل ذلك، وأنا سأكون خادماً وفياً، وأعدك أن أحرث لك الأرض وسأكون لك مصدر رزقٍ، حيث سأحرث أراضي القرية وتأخذ أنت أجراً وفيراً، اذهب إلى مبقرة جارك «عليشي» حيثُ كنتُ أنا، وهناك أخي العجل الذي سيبيعه عليشي بنصف الثمن..

لم يأبه الرجل لكلام الثور حيث اعتبر أنّهُ في حلم، لكنّهُ في اليوم التالي مرَّ من أمام كرم «عليشي» الذي ناداه:

يا أبا مالك، يا أبا مالك تعالَ.. أنا محتاجٌ إليك.

ردَّ عليه : خيراً إن شاء يا عليشي؟..

قال الرجل: يا أبا مالك بعد غدٍ العيد وأنا أحتاج نقوداً، وعندي عجلٌ هو أخٌ للعجل الذي عندك، ثمنه أكثر من مائة ليرة، سأعطيك إيّاه فقط بسبعين ليرة، أعطني الآن نصف الثمن، والباقي على مهلك عندما يتوفر معك تكمل الثمن.

تذكّرَ أبو مالك مشهد الليلة الفائتة، وقبل بالعرض واشترى العجل وذبحه في العيد، وترك العجل الأكحلَ وحوّله إلى الحراثة، ومضى شهر من الخريف والعجل يحرث أراضي القرية مع عجلٍ آخرَ اشتراه أبو مالك ديناً فالحراثة تحتاج عجلين..

أمّا في الشهر الثاني فبدأ العجل بالتباطؤ ثمّ التمرّد على تنبيهات صاحبه وصار يرمي ثقل الحراثة على العجل الآخر.. ولكي يرتاح من مشقة الحراثة وفي غفلة من أبي مالك، هجم على رفيقه العجل وهو نائم وبقر بطنه بقرنيه الحادَّتين فمات العجل بعد أسبوع وخسر أبو مالك عجلاً لم يدفع ثمنه، وأجرة أراضٍ لم يحرثها ومصدر رزق كان سيأتي في يدي أبي مالك..

لكنَّ «الأكحل» لم يكتفِ، بل غادر زريبته ذات نهار، وهجم على أطفال يلعبون ولولا حماية الله لقتل الصغير ابن الشندخ البريء الذي كان يلعب، وهجم ينطح من يمشي أمامه، وكان يثور، وخواره يملأُ المكان بلا أي سبب.. حتى أنّه هدم حائط الزريبة، فهربت منهاعنزة أم مالك.. فقّررَ الرجل أن يرسل الأكحل إلى الجزّار..

في تلك الليلة جاءه الأكحل مُتشخّصاً متمسحاً بثوب أبي مالك كما حدثَ صيفاً:

أرجوك لا ترسلني للذبح، سأعرض عليك عملاً

قال أبو مالك: ما هو؟

قال الأكحل: أنا كبرتُ أصبحتُ فدّاناً، تتركني لتلقيح البقرات، وتأخذ أنت أجرة عن كل بقرةٍ ألقحها أنا، فتصبح غنياً..

بهدوء سحب أبو مالك بندقيةً وجهها إلى رأس الفدّان الأكحل: لن أتركك إلى الصباح

ثمّ دوّى في الفضاء صوت رصاص بندقيّة..

وصوتُ خوار غليظٍ.. غليظٍ..

قبر - حياص

حياص الأول ١٩٠٠

تعرفه جدّتي وتؤكِّدُ: أنّها شاهدت وعاصرت (أبو طمسة)، كانت صغيرة، هربت مع أقرانها مرّات عديدة من أمام أبي طمسة لأنّه ضخمٌ كالغول، ولأنَّ شرواله يتسع لثلاث «جنّيات» يحملها حيث يحلُّ.. وقالت أيضاً: إنّ الرجل فظٌ غليظ لم تقبل بهِ أيّة امرأة كي تتزوّجهُ..

والحقيقة أنَّ الرجل لم يتزوّج ولم يُرَ قطُّ مع امرأة، بل كان يخرج من القرية كل صباح ويعود عند المساء فقط برفقة – حياص ..

وحياص «حماره»، رفيقه وصديقهُ ومؤنس وحدته، وعليه يعتمد في تحصيل رزقه، حيث يربطه إلى المحراث كلّ يوم، يحرث أراضٍ في وديان القرية وسفوح تلالها، ويأخذ أجرةَ أتعابه، ويشتري غذاءه وحاجاته وشعيراً وتبناً لـ «حياص».

كانا يتقاسمان الغرفة ذاتها والليل ذاته واللغة المشتركة بينهما..

مرّت سنوات عديدة قبل أن يضعف الحمار، لقد وهنت قواه وصار يتخبّط في الحراثة، ولم يعدْ لديه العزم على جرِّ المحراث إلاّ قليلاً، وكان تذمّر أصحاب الأراضي يزداد كل يوم لتأخر حياص وصاحبه عن إنجاز العمل.. حتى أتى اليوم الذي لم يستطع فيه الحمارعلى المشي..

صار الرجل يسهر على حماره.. يداويه بالماء الساخن وبالدواء يخلطه مع الشعير وصار يبحث عمّن يعرف الدواء حتى أنّه ذهب يبحث في القرى عن أدويةٍ وأعشابٍ علَّ المرض يغادر «حياص» ولكن لا فائدة، لقد استيقظَ الناس وعرفوا أنّ «حياص» قد مات.. وذهب أبو طمسة إلى أرضٍ وحيدةٍ يملكُها وهي تلّةٌ واسعةٌ وقليلة الارتفاع في منتصف الطريق بين القرية وحقولها، على التلّة شجرتا تينٍ وتوتٍ كبيرتان، وهناكَ حفر قبراً ودفن صاحبه.. وصار يبكيه كما لم يبكِ فقيدٌ فقيداً له..

ووهب الأرض للقرية إكراماً لـ «حياص»..

منذ ذلك الحين صار الناس يستريحون في غدوهم ورواحهم إلى الحقول تحت شجرة التوت قرب قبر– حياص، والذين يعطشون يشربون من البئر الموجود قرب قبر –حياص،

والمواعيد تجري بين المتواعدين قرب قبر -حياص.. وحتى أم العرجا تعرّفت على زوجها عند قبر – حياص..

صارت إلفة بين الناس والمكان حيث قبر -حياص.. قسم من الجيل التالي صار ينظر للمكان بشيء من القدسيّة، أمّا الأجيال التالية التي لاتعرف صاحب القبر فقد أحاطت القبر بجدار عالٍ ظنّاً أنّ صاحبه ذو شفاعةٍ وكرامات..

حياص الثاني -بعد مائة عام- :

من نفس القرية رحل رجلٌ أثقلته الديون وشظف العيش وناءت به السبل، رحل «حوّاط» إلى العاصمة، غاب عن القرية عشر سنوات كاملة، ثمّ رجع وقد بانت على ملامحه علائم نعمةٍ وترف، بذخ الكثير من المال، اشترى أراضٍ، وبنى قصراً باهراً خلال زمنٍ قصير، قرّب منه بعضاً من شباب القرية، أغدق عليهم، وساعد بعض المرضى، واشترى بقرات ونعاجاً، وزّعها على أُسرٍ فقيرة، فأحبّهُ الكثير وتودّدوا إليه..

وفي إحدى الليالي المظلمة خرج «حوّاط» إلى حقل بعيد، كان يجرّ حماراً محملاً بصناديق ثقيلة، حفر حفرةً وطمر بها الصناديق تحت شجرة سنديان، قرب الطريق تماماً، ثمّ أطلق رصاصةً على رأس الحمار فقتله ورجع إلى قصره ..

في اليوم التالي جمع رجال القرية ورجالاً من القرى المجاورة، وزّع عليهم أكياس المال، وأغدق عليهم الهدايا، وأطنب في مدحِ آبائهم وأجدادهم، وكرامات جدّه ثمّ أنهى حديثه قائلاً:

رأيت في المنام رؤيا.. وهي أنّ هناك قديساً له منزلة من الله، وهو جدُّ هذه القرى جميعاً، وقد زارني وطلب أن أخبركم أن قبره تحت السنديانه القريبة من قبر حياص، والدليل إنَّ هناك قبراً قد حُفِر وترابه طريٌ..

وافقه الرجال وأثنوا على أصله..

لم تمضِ سوى أيامٍ قليلة حتى أصبح بناء مقامٍ للجد قائماً ومضاءً ومرتباً، والناس توزِع لِأهلها: هذا مقام جدّكم المُقدّس.

وصيّة من حوّاط إلى ابنه البكر وضعها في رسالةٍ مُغلّفةٍ كُتِب فيها :

قرب قبر حياص صندوقان من الذهب هما لكَ ، مدفونان بدلاً من الجد الكبير تحت شجرة السنديان.. لا تخشَ على المقام حارسٌ، والقبرُ مقدّس لن يفتحه إلاّ أنت..

قحطان العرباوي

بيته في طرف المدينة، على التخم تماماً، التخوم تكون مليئة بالأعشاب اليابسة والزواحف والحجارة واليابس، والأحياء في أطراف مدن الشرق تمتلئ أمراضاً وفقراً وجهلاً وجرذاناً، وهموماً وقلقاً دائمين..

دار السيد قحطان في البيت، وانتبه إلى شيء يلمع في شق يشبه الجرح على الجدار.. تقدم ومسح بيده، فتلونت بسائل كأنه دمٌ.. قال في سره: هل ينزف الجدار دماً من جراحه؟.

ثم تقدم نحو الباب وحين أمسك بقبضة الباب كان سائل لزج يشبه الدم قد دهن يده به.. رجع وغسل يديه، وخرج السيد قحطان من بيته باكراً، حاملا كيساً أسود.

كان لديه وقت كي يذهب ماشياً.. اتخذ طريقه بين أزقة الحي، ثم انحنى إلى شارع أوسع في الحي القديم، ثم اتخذ الكورنيش الغربي مساراً له إلى عمله في الشركة البعيدة قرب باب المرفأ الكبير.

على الطريق كانت الأفكار تتزاحم في رأسه، وتتلاحق صوراً للأهل والبيت والعمل والرفاق الذين ضاعوا في زحمة الحياة.. ولم يعرف لماذا حضرت صورة أمه المتوفاة من زمن، حين كان صغيراً. وصورتها وهي تقول له:

لا تتبعنا، انتبه، إن أباك يبصق دماً كي يؤمن لكم العيش الشريف.

وتذكر أن أمه تشبه كثيراً جدته التي قصت عليه حكاية جده الذي مات وهو يبصق دماً، ولم يكن بمقدوره السفر إلى الأطباء ودفع ثمن الدواء..

وقصت عليه الجدة حكاية حفظتها عن الأقدمين: إن في حرب المائة عام، مات رجال كثيرون، أخذوهم بالقوة ليحاربوا عن السلطان، وإن أغلبهم كان يتقيأ دماً من التعب والجوع، والحر الشديد..

تنزاح أفكار الماضي القريب إلى زمن آخر حيث الأحلام التي لم تتحقق.. أحلام الجامعة والسفر «وصهباء» تلك جميلة الوجه واللسان والروح.. صهباء التي ضاعت مثلما

ضاعت أحلام الطيبين.. وتقزمت طموحاتهم حتى صار الزمن عبئاً، والأفكار أضحت محصورة في هم العيش ليوم واحد لا غير..

دخل قحطان باب غرفته في الشركة تعباً.. نظر من النافذة إلى السفن الكبيرة الرأسية في الميناء، وإلى اليمامات القريبة التي تنقر ما تلقاه من طعامها.. جلس على كرسيه دقائق.. أخرج تفاحة من الكيس بيده اليمنى.. قضم منها قطعة صغيرة ثم قطعة أخرى.. ورد التحية على زميله في العمل «غسان» الذي دخل لتوه..

نظر غسان إلى قحطان وتقدم نحوه مندهشاً بلهفة حزن:

قحطان.. ما بك؟.. فمك ملآن بالدم؟..

نظر قحطان إليه مستغرباً ومسح فمه بيده ونظر إليها!..!

كانت يده قد تصبغت بالدم.. تمتم قائلاً:

لا أعرف.. لا أعرف..

مسح له غسان فمه وأخذه إلى المغسلة حيث نظف اليد والفم..

بعد أيام قليلة تكرر نزيف الدم.. مرات عديدة كلما قضم تفاحة أو جزرة أو حبة خيار كان الدم ينزف من فمه..

ذهب إلى الطبيب الذي لم يرَ في قحطان أي سبب لنزيف الدم.. وذهب إلى طبيب الأسنان الذي لم يرَ أيضاً سبب النزيف.. حتى صار الأمر مزعجاً له، ومقلقاً لزملاء العمل.. ثم تطور الأمر حتى اعتبر الآخرون أن قحطان مريضٌ مرضاً غامضاً ومعدياً، وعلى الآخرين الابتعاد عنه.. وأصبح وحيداً ومنعزلاً في غرفته.. ولم يسمح له بالصعود إلى الحافلة التي تقلهم صباحاً إلى العمل ومساء عند الانصراف، اتقاء وخوفاً من العدوى..

انكفأ الناس وهربوا من مجالسة قحطان بالرغم من نفي الأطباء لأي حالة مرضية عند الرجل.. انقطع عن العمل ولازم بيته إلى أن جاء يوم زاره غسان قائلاً له:

لست وحدك في هذا المرض.. سمعنا عن حالات تبصق دماً مثلك..

دون عوارض.. يجب أن تبحثوا معاً عن دواء للمرض..

ثم تناقلت الصحف أخباراً من بقية البلاد عن أفراد وجماعات تبصق دماً، لذا وجب عزلهم وعدم مخالطتهم. وانتشرت بين أرجاء الوطن ظاهرة المرض التي تجعل الرجال يبصقون دماً، وكذلك بعض النساء يبصقن دماً أيضاً، والمفارقة أن المرضى متعلمون ومخلصون في العمل..

أصبح الناس وأولي الأمر يراقبون من يبصق دماً خارج المشافي.. ويطردون ويعزلون كل من يبصق دماً.. ويشمتون بهم، ويروون عنهم حكايات تمس أخلاقهم وجذورهم وأفكارهم.. وصار قحطان وأمثاله يشعرون بالضيم والعناء، ويصرون على أنهم لا يَعْدُون أحداً، وأن ما يُنقلُ عن مرضهم ليس صحيحاً، وإنما الهموم والقهر والضيم أوصلتهم إلى وضعهم هذا.. وحين يزول الظلم يسعد الناس ولا يبقى من يبصق دماً.. وكتب بعضهم مايلي:

(إن القهر الذي يلفنا هو ما يجعلنا نبصق دماً.. وإن العدل هو شفاؤنا).

وأخيراً صدر الأمر السامي بحجر الذين يبصقون دماً في معسكرات مغلقة حتى الشفاء، فنشطت قوات الحرس وأعوانه وكثير من الناس وأخذوا الرهائن (المرضى) إلى الحجر (الصحي)الطويل..

قال قحطان وهو يقاد أمام الناس الشامتين به: سيأتي يوم قريب ستبصقون دماً من أفواهكم، ودماً من عيونكم.. وأرواحكم ستشقى زماناً لن ترون به سعادة ولا أفراحاً..

قال الراوي: صدقت نبوءة قحطان وأمثاله في الحرب التي أزهقت الأرواح، ونشرت اليأس والدمار، وغطت بالدم وجوههم، وأغدقت بالدم عيونهم.. الحرب التي بدأت من ثمانٍ خلت ولم تنتهِ بعد..

حَمْدَه . حَمْدَه

حَمْدَه ليست في البيت!..

حَمْدَه هربت؟..

حَمْدَه لا تهرب.. بنت الأصول لا تهرب..

حَمْدَه ضاعت..

حَمْدَه ليست ضائعة.. حَمْدَه ذات عقل.. ذات دراية..

حَمْدَه باحثة.. كغيرها من بنات الشرق تبحث.. تبحث عن أشياء، أشياء تفتقدها ولا تعرفها بالضبط، لا تعرف فلسفتها الغائبة.. لا تعرف ماهيتها..

حَمْدَه الآتية من خيمتها البدوية.. حَمْدَه الآتية من قرية عند هضبةٍ أو فوقها، حَمْدَه التي احتضنها زقاق من الأزقه الكثيرة التي لا تُعدُّ في مدن الشرق ذات التاريخ المنقسم على نفسه، مثل الدودة الشريطية التي تنسخ نفسها..

حَمْدَه هي نفسها ذاتها، في المكان والزمان، تنسخ نفسها في ذريتها.. حَمْدَه الراعية تتقن رعيها.. في البيت تبدع في النظافة.. وفي الحقول الشاسعة تزرع وتشوي جبهتها شمس حزيران.. حَمْدَه..

حَمْدَه صادقة.. كريمة.. تحب الجيران والأطفال، بريئة تلعب معهم الغميضة، وتتأرجح معهم إن كانت ثمّة أرجوحة في المكان..

وحَمْدَه تحلمْ.. تحلم بالخروج من منزل أضحى لها سجناً بعد الزواج..

حَمْدَه تحلم باكتشاف العالم وخبايا الكتب، وكيف تستطيع صنع العطور..

حَمْدَه تحلم بالجامعة التي صارت عليها حراماً لأن الجامعة فسق وشرك..

حَمْدَه المأسورة.. المقيدة بسلطان الاخ والأب، وقانون العم والخال..

حَمْدَه التي تريد أن تطير، وقد قصّوا جناحيها.. تريد أن ترقص وتغني، فقالوا: إنّ الرقص للأفاعي، والغناء للقرود..

حَمْدَه التي كانت.. وكانت.. ولم تزل..

إحدى الحمدات وجِدت نادلةً في مقهى بالجامعة، تقدّم القهوة والشاي للطلاب من خلف طاولة رخام عالية بحركة سريعة ومتوترة ونزِقة، ومع كل كأس كانت تقدمه كانت

نظرتها القلقة بادية لمن يشتري، وصار الجميع متعودين على صفتين فيها: صمتها الدائم، وقضمها لأظافرها..

نعم كانت تقدم كأس الشاي بيدٍ وتقضم أظافر يدها الأخرى، وحين لم يكن ثمّة طالب يبغي حاجته، كانت حَمْدَه تضع مرفقيها على الطاولة وترفع كفيها إلى فمها وتتابع قضم أظافرها.. وكأن هذه الاظافر في نمو دائم وسريع..

مرّةً تقدّم طالب إلى الطاولة قائلاً: أنا هوّاش الهوّاش.. أسألك لماذا تقضمين أظافرك دائماً؟.. ألم تنتهِ تلك الأظافر؟..

قالت وقد شوهدت تبتسم لأول مرّة: اسمك ظريف، شو معنى هوّاش الهوّاش؟..

قال هوّاش: أنا من جاء يسألكِ..

قالت وقد بانت جدّيّةً: إذا لم تكن لديك تفاحة فماذا تقضم؟..

قال هواش: أقضم قطعة خبز أو حلوى..

قالت: وإذا لم يكن لديك خبزاً أو حلوى؟..

قال: أقضم كتابي، هل تهربين من السؤال؟..

قالت: وأنا أقضم كتابي هذا.. وأشارت إلى كفيها، اسمع يا هذا، اذهب وأقضم كتابك، فالحياة هكذا.. في الغابة والمنزل والسوق.. واحدٌ يقضم آخر، وجيلٌ يقضم جيلاً..

قال هواش: هذه فلسفة جديدة غريبة، والغريب أنني أسمعها من..

قالت حَمْدَه: تسمعها من نادلة؟! لا، لا تخجل فلا ضير في ذلك

قال هوّاش: أنا آسف.. لا أقصد الإهانة، ولكن أرغب الآن أكثر في السماع لك..

قالت حَمْدَه متسائلةً: ما لعينيكَ تقضمان جسدي، خذ هذا كأس شاي اشربه وانتبه:

إذا لم نستطع منع من يقضمنا فنحن نقضم أصابعنا ونأكلها..

قال هواش: لم أفهم!!..

قالت حَمْدَه: اذهب إلى والدتك واسألها: لماذا تقضم الفئران الثياب ولا تأكلها،

قال هواش: هذه طلاسم؟..

قالت حَمْدَه: ماذا تقرأ؟..

قال هوّاش: أقرأ في قسم التاريخ...

قالت حَمْدَه: من قضم بلادك وتاريخها أيها الشاب؟.. اسمع جيداً:

في الأسبوع القادم فتش وابحث وتعالَ إلي وقد أتيت لي بجواب:

مَنْ يقضمُ مَن..

وسأحكي لك لماذا أقضم أظافري،

لا.. لا..

قضم الأظافر ليس حدثاً مفتعلاً..

قضم الاظافر ليس هرباً من موضوع ما.. ولا للإثارةِ أو جذب الانتباه..

وهو ليس ثقافةً للترفيه أو الجدل..

وغير قابلٍ للتقليد..

هو بطريقة واحدة لا يجيدها غير صاحبها، للآخر خاصته وطريقته أيضاً،

- هوّاش الهواش - رجع إلى حَمْدَه، قال لها مبتسماً: اسمعي، كان جدي لأبي يقضم أظافره، اسمعي حكايته:

هوّاش الكبير «جدي» كان تاجراً صغيراً يتاجر بجلود البقر، يأتي بالجلد الناشف، يضع قدمه حافيةً، ويقطع من الجلد مساحة قدمه، ويقص القطعة ويثقبها من حوافها ويلفها على شكل حذاء ويبيعها، أيام «العصملي» كان مترفاً من ينتعل ذاك الحذاء، أمّا هوّاش التاجر فقد أتى يوماً إلى البلد وقد انتعل حذاء كاملاً، وفوقهُ جلد يلفّ الساق حتى الركبتين، كان حذاء جذّاباً لناظريه، وكان يفتخر ويتهادى به، حتى أن مختار القرية وشيخها عرضا أرضاً وكرم الزيتون مقابل أن يعطيهما الحذاء، أو يوصي بمثله في العام القادم..

لم يمضِ أسبوع واحد حتى كانت جثّة جدي طافيةً في النهر، ولكن.. بدون حذائه الجميل، وهكذا صارت جدتي «حبيبة هوّاش» تبكيه وتقضم أظافرها متمتمةً: يا للسخرية.. يا للعار.. روحٌ طاهرة مقابل حذاء؟..

انظري يا حَمْدَه: الجهل والطمع يؤدّيان للجريمة..

نظر هوّاش إلى حَمْدَه: من أية مدينة أنتِ ياحَمْدَه؟..

نظرت إليه مستهجنةً: سؤالك ليس في محلّه ولكني سأجيبك: أنا من بلد اليتامى..

هوّاش: ما.. ماذا؟..

حَمْدَه: هي كل مدينة في هذا الشرق.. مدن القهر والحرمان.. يتامى عن طريق الأهل.. يتامى العلم والفنون.. يتامى من الحكمة والحضارة.. يتامى من الصدق.. من النظافة، نظافة الجسد والروح.. نحن يتامى من الطفولة.. لم نكبر.. لم نبدع..

انقطع استرسالها في الكلام وبدأت بقضم أظافرها هذه المرّة بتوتر نابع من قهر داخلي فظيع، ثمّ نظرت إلى هوّاش: جدّي كان عاملاً وراقصاً، كان يرقص في كل المناسبات الوطنية والقومية، صراخه وهتافه كان يخيم على المسيرات الشعبية وأعياد الوطن، وفي يومٍ ربيعي كان في الشارع مع جدتي التي كانت أجمل نساء المدينة، وقفت سيارتان فجأةً نزل منها رجال كالوحوش مغطاة عيونهم بنظارات سوداء، ابتلعت جدي وجدتي، وبعد أشهر عادا.. عاد جدي جثماناً وعادت جدتي فاقدةً الذاكرة، وقبل أن تموت لم تكن تفعل شيئاً سوى قضم الأظافر..

عند الظهيرة أخذت حَمْدَه (هوّاش) إلى منزل ضيق، وعلى كرسي متحرك كان شابٌ فاقدٌ لقدميه وفاقدٌ للنظر، يجلس وأصابعه في فمه..

قالت حَمْدَه: هو من ضحايا هذه الحرب المجنونة، مرميٌّ هنا.. بل رموه هنا كالحشرة..

وقالت وقد ملأ عينيها الدمع: انظر إليه، هو أيضاً يقضم أظافره..

قنطرة فريد

جميلةٌ وساحرة.. متناسقة.. عالية، توحي بالعظمة لذاتها ولمن خلفها، ولا يستطيع خيال الولد الصغير أن يرسم الأجمل منها.. إنها قنطرة فريد. .

هي قنطرة الدار الواسعة، من تحتها تمرُّ الجمال المحملة بأكياس الزيتون إلى المعصرة في الركن الشمالي للدار، ومن تحتها مرّ موكب العروس «فريده» على الحصان الرمادي الذي سمع الصغير فريد صهيله الجميل لأوّلِ مرّة تحت القنطرة البهيّة.

مرّات ومرّات.. ساعات طويلة كان الولد يقف قبالة القنطرة.. يعِدّ حجارتها، يميل برأسه وهو يتابع انحناء قوسها العالي، ويحلم بارتقائها والجلوس هناك.. فوق.. فوق عاليها..

سأل الولد جدّته: من بنى هذه القنطرة؟..

قالت الجدّة: جدّي فريد..

قال الولد: وابنك اسمه فريد.. وأنا فريد الصغير!..

قالت الجدّة: نعم أسميت ابني باسم جدّه البطل، وأيضاً جدّ جدي كان اسمه فريد وهو الذي علّم الناس بناء القناطر، اسمع يا بني:

لكل عصر رجاله المبدعين، فريد الأول كان فلتة زمانه في الإبداع والحكمة.. صار من (الشرفاء) وصار سيدهم أيضاً..

ثمّ قالت بحسرة: ولكل عصر حثالتهُ وأوغاده، وفي زمن فريد الأول لم يكن يجرؤ الأوغاد «إن وجدوا» على التطاول والتخريب.. كانت قيادة الفريد حقاً فريدة، وكانت كلمته الرشيدة هي العليا. .

اسمع يا بُني: فريد يرسم القنطرة على الأرض، ويختار الحجارة بنفسه، ويطلب من النحاتين نحتها وفق القياسات المرسومة، ويتم البناء حجراً حجراً تحت إشرافه.. يعلو بناء طرفي القنطرة ويبدأان التقوّس والانحناء.. تُسند الحجارة العالية بأعمدةٍ خشبيّة.. حتى

يقترب القوسان من التلاقي في الأعلى.. حينذاك ينادى على الشريف فريد ليضع بيديه الطاهرتين «العقدة» وهي الحجر التي تمسك البناء كلهُ.. هي حجر كغيرها بل هي أصغر حجر في القنطرة، لكن عندها، وعندها فقط وبوجودها ومقاسها نفسه لا غير يتم توازن القنطرة، هي مثل فريد الدروب تلتقي عنده وهو عنصر التوازن والتماسك والبناء القوي..

وجدّي يا بني، مأثرته في بناء جسر فوق النهر الكبير.. جسر يعلو فوق قنطرتين متوازيتين، كبيرتين وعاليتين، كانت القنطرتان أعجوبتي ذاك الزمان البعيد، وقد أشرف على بنائهما وهو في الثمانين من العمر، كان عظيماً جمع القرى السبع.. ثلاث قرى غرب النهر وأربع قرى جهة الشرق، ولم تكن القرى لِتأتلف وتتعايش وتزدهر علاقاتها مع بعضها بهذا الشكل لولا مأثرة فريد الأول، ثمّ التفتت الجدة إلى الولد المستمع بشوق إلى الحكايه قائلةً:

يقولون لي إنّني أشبه (فريد)، جدي الأول.. حلوة مثله وذكيّة..

قال الولد: أكملي الحكاية.. أكملي

قالت الجدة: جاء الشريف فريد كي يضع بيديه الطاهرتين حجر العقدة، وكانت الحشود مجتمعة من شرق النهر وغربه، ليحضروا مباركة الشريف في وضع العقدتين والألواح الخشبية، وتدشين الجسر الكبير فوق النهر العظيم، لكن فريد أمر كل الحشود بالابتعاد كثيراً، وأمر أن يبقى من كل قرية رجل تختاره القرية لعزّته وشهامته.. وهكذا امتثلوا له وابتعد الجميع وبقي سبعة أشخاص من سبع قرى..

قال لهم فريد: سأرحل عن هذه الدنيا، فمن تختارون لوضع العقدة؟.. لم يجرؤ أحد القول أو الاختيار..

قال الشريف: حسناً سأضع العقدتين أناـ وإني آخِذٌ عليكم العهد أن تقولوا أنَّ واحداً من السبعة قد وضعها ودون أن تذكروا أي اسم، أو أيّة قرية، كي لا تتباهى وتفتخر قرية على أخرى..

ثمّ اجتمعت حشود القرى فقال لهم الفريد: واحد من السبعة وضع العقدة والكل أخوة والجسر للجميع..

ساد الهمز والتخمين، وكلما سألوا واحداً من السبعة رجال:

من كان له شرف حمل العقدة؟..

كان الجواب: لست أنا

وبعد ذلك ما الذي حدث يا جدتي؟..

: سارت الأمور على الخير بين القرى التى ازدهرت وصارت مدنناً.. ربطها ووحدها جسر فريد المتربع على قناطره، حتى جاء من الأوغاد دَعيٌّ، ادّعى أنّ جدّه هو من وضع عقدة القنطرة، وجاء آخر مدعياً أن قريته هي الأَولى، وجاء من قرية ثالثة من قال إن له شرف حماية الجسر، أما غيره فقد استولى على الجسر وفرض الغرامة على من يعبر، ثمّ نافسه آخر، وآخر، ودارت الوقيعة بين المدن، ثمّ اشتد التنافس ودارت رحى الحرب بين متنافسين آخرين لا يعرفون فريد، ولم يسمعوا به، وتهدّم الجسر وما زالت بقايا قناطره..

قال الولد: وأين قنطرتك أنتِ يا جدتي؟..

قالت الجدّةُ: أنت يا فريد الصغير.. أنت قنطرتي..

زريف

لا تبادِلْ..

لا تقارِن..

كُن عنيداً..

لا تهدِ وردك من لا يستحق

لا تُماثل بين زهرتين..

زهرة وضعتها أمّك فوق قبرك.. أو زهرة قُدّمت للحاكم تزلّفاً حين توّجوه ملكاً..

زهرة أولى تهديها لحبيبتك الصبيّه التي غافلت أهلها كي تشمّ رائحتها.. وزهرة أُعطيت لِمُحتّلٍ أجنبي ترحيباً به وانصياعاً لأمره..

كن عنيداً مثل «زريف»..

وزريف هذه امرأة كان اسمها ظريفة، لكن المختار نسي حرف الهاء الأخير فصار الاسم (ظريف)، أمّا من بدّل الظاء بحرف الزاي فلا أحد يعرف..

اشتهرت زريف بحركتها وهي تحمل طبقاً واسعاً من القش على رأسها، وتضع فيه صحناً من الفخار تُشعل فيه البخور الذي تعبق منه رائحته الزكية، وفي الطبق أعوادٌ من الريحان طيب الرائحة، وباقةٌ من الورد المتفتح الجميل..

هي وحدها في الأعراس تحمل طبقها وتهدي باقة الورد للعروس، مرفقةً مع زغاريد وأهازيج.. وهي وحدها التي تعرف وتسبق الآخرين لملاقاة المهاجر الذي يعود إلى بلدته وتهديه الورد ويتبارك من الرائحة الزكية.. وزريف تنشر خبر حمل المرأة التي لم تلد منذ عشر سنوات.. وفي الأعياد والمناسبات الحزينة تحمل طبقها الموشى وريحانها وبخورها وترميه فوق جثمان توفي صاحبه، أو فوق قبرٍ طري لفقيدٍ جديد من القرية.. وفي كل مرة تأتي إلى صاحب المناسبة السعيدة: هات البشارة وإن شاء الله بالتوفيق، وتتحفه بأجمل موّالٍ للعتابا وأغاني الفرح..

وفي المناسبة السوداء تذهب وتغني أغاني الحزن واللوعة، بإحساسٍ وصدقٍ عاليين.. والكل يكرم ويزيد العطاء لـ زريف..

تمضي السنوات، تكبر زريف، تفقد أحد أبنائها.. كان عسكرياً واختفى.. اختفى في أحد الحروب، ولم يعد، زريف تصبح عجوزاً، وما تزال تحمل ريحانها ووردها وبخورها وتنشد اغانٍ وتزغرد لأصحاب المناسبة، وتنهي وصلتها بالغناء الحزين عن ابنها الشاب الذي طالت غيبته على أمل مسكونٍ بالنفس برجوعه سالماً..

ثمّ تمضي الأيام وتتحضر القرى وينزل الناس شيباً وشباباً وأطفالاً للترحيب بالوالي «الرئيس» الذي تسميه زريف «جناب الوالي» والذي سيمرُّ من مفرق الضيعة، لقد نزلوا من الصباح الباكر.. ونزلت معهم زريف، حملت طبقها المليء بالورد البري، والورد الذي قطفته من وردات أم عبدو الحلبية الرائعة الألوان، وصلت مع الجموع.. وانتظرت.. طال انتظارها حتى الظهيرة، وفجأةً تدافعت الجموع بقوة.. وعلا الهتاف مع الصراخ.. وصارت الحشود تتلاطم كالأمواج، ثمةَ من يحرّك هذه الكتل للأمام والخلف، كان الحراك قاسياً.. عنيفاً.. ارتفعت بعدها أصوات التهليل والتمجيد، وأصوات الرصاص وأبواق السيارات، وزريف التي حملت طبقها غابت بين الحشود وغاب صوتها.. وسقطت ورداتها وريحانها وبخورها..

لم يقف موكب الوالي.. سابق الريح ولم يقف، والحشود في زخمها لم يهدأ هديرها، حتى استفاق الجمع إلى عشرات الجرحى وفاقدي الوعي على الأرض..

انتهى مشهد الاستقبال على جثة زريف قرب طبق من القش وبقايا ريحان وزهرةٍ في كف زريف اليسرى، وكفّ يدها اليمنى تقبض بقوة على ورقة بيضاء مكتوب فيها:

الله يخليك يا سيدي، ابني.. ابني الدرويش مفقود بالحرب من ثلاثين..

الله يعطيك العافية يا جناب الوالي، صحيح ابني ما كان بيحب الملوك، بس والله كان كتير يحب الوطن والورد..

لهّاية الراعي

عمّتي «ميجانا»[26] أخت جدي، كبيرة السن، خنادق وجهها عميقة وكثيرة، ربما على عدد سني عمرها.. ربّما كل عامٍ يحفر ثلماً في وجهها، ويُبرِز ندبةً سوداء فوق الجبين..

والعمّةُ عزباء لم تتزوج في حياتها، تعيش معنا وتقضي صيفها في كرم التين، تساعد أمي في الطبخ، وتوقد النار تحت القِدرِ الفخاريّة الجميلة، ننام قربها صيفاً مُلتحفين السماء، نسمع حكاياها وننام، كلما أفقنا في الليل نراها مستيقظة تجوس بناظريها السماء والنجوم، تبحث عن ماضٍ أو حلمٍ اضحى «وروارا»[27] وغاب هناك بين النجوم..

في ليلةٍ بهيجة القمر، صافية قلتُ:

عمّتي: جدي يناديك «عليا» والآخرون ينادونك: «ميجانا» مَنْ سمّاكِ «ميجانا» وشو معنى اسمك؟..

تنهّدت العمّةُ بعمقٍ وأخرجتْ زفرةً طويلة.. طويلة..

قالت: تريد حكايةً؟.. اسمع إذن:

كنتُ صغيرةً وكنت أُحِب الخراف، عندما أرى خروفاً، يطير قلبي من الفرح، وأجري خلفه، أمسكه من قرنيه، يحاول الهرب، نتعارك، أحضنه بقوة، أضمه إلى صدري، أمسح على ظهره، أشمّ رائحة صوفه.. رائحة الصوف تسحرني، أمشي به إلى بركة الماء، أغسله مرات عديدة، حتى ينظف ويبرق صوفه الذي هو بلون الذهب..

وكثيراً ما بكيت أمام أمي وأبي كي يشتروا لي خروفاً، حتى كان ما أردت وأصبح لي صديقاً هو شغلي الشاغل ومالىء أيامي ومنعشها.

في أحد أيام الربيع البديعة والآسرة، خرجت وخروفي إلى حقل بعيد مع جارتنا الكبرى التي ترعى خرافها، وتركت خروفي، وصرت أتسلّى بقطف الزهور البريّة، إلى أن حطّتْ أمامي عصفورة كبيرة، سحرتني ألوانها وجمالها، كانت متعددة الألوان، آخاذةً في كرجها.. تقدمتُ منها فبقيت ثابتة، انحنيت كي أمسكها فطارت وحطّت على قربٍ مني فتقدّمتُ ثانية وهممتُ أن أحضنها بكلتا يديّ، لكنها طارت من جديد، وكل مرّة تظهر في طيرانها أكثر روعةً وجمالاً، ثمّ حطّت على بُعد أمتار قليلة، فمشيت بحذرٍ شديد ورميت نفسي فوقها لكنّها طارت قبل أن أمسكها، وفي كل مرّة كان إغراؤها يكبر، وأنا أرى بهجة

[26] ميجانا: أغانٍ من التراث الشعبي الجميل.

[27] الوروار:من أجمل الطيور البرية على ساحل المتوسط الشرقي.

ألوانها، وهي دائماً تبتعد قليلاً وأنا أقترب وأرمي نفسي فوقها، وكل مرّة أقول الآن سأمسك بها..

غابت الشمس ورجعت خائرةً منهكةً من التعب والجوع والعطش، وفقدتُ خروفي.. ضاع ولم أجده، وفقدت حلماً كان كبيراً، هل تعرف ما اسم العصفورة الجميلة؟.. هي **لهّاية الراعي** . تجعل الراعي يغيب عن خرافه وتلهيه عن قصده وعمله..

ولكنكِ يا عمّتي، مّن سمّاكِ - ميجانا؟..

قالت: أنا كنت لهّاية الراعي، كنتُ أجمل بنات القرية على الإطلاق، وأكثرهنّ إثارةً ودلالاً، وأكثرهنّ إغراءً وإغواء.. ذاع حسني وصيتي في السهل والجبل، يأتي الشاب فيقترب إليّ حتى إذا كاد أن يصل، ابتعدت عنه قليلاً فيقترب بشوق أكثر، وألعب معه لعبه لهّاية الراعي، حتى يتعب ويرحل، ثمّ يأتي شابّ آخر ينوي خطبتي، فألعب لعبتي معه، وكلما تعِب أكثر مني زادت متعتي، وأنا مسرورة من رؤية الشباب الوسيمين والأقوياء، وهم ينسحبون وتنخفض كبرياؤهم، وهكذا يا عمتي إلى أن جاء أجمل الشباب وأعلاهم قدراً، وخطبَ ودي، لكنّه عانى أكثر من عشرات الشباب الذين أرهقتهم لعبتي، اقتنع بأنني ألعب به وبعواطفه، بعدها صار يجيء في الأماسي ويغني بصوته العذب الرقيق:

«ميجنا ويا ميجنا ويا ميجنا.. الكلب أوفى من الـ غدر في حبّنا»

«ميجنا وياميجنا ويا ميجنا.. لهاية الراعي اللعينة مْعَنْعَنَا[28]»

وهيك راحو الشباب وراح اسمي الأول وصار اسمي «ميجانا»..

قال الراوي يا سادة يا كرام: إنّ حاكماً سمع قصة ميجنا وكان يعرف لهاية الراعي، أحضر ابنه وأوصاه: عندما تصير حاكماً طبق حكاية لهاية الراعي.. قال له: كيف؟..

قال: كل عشر سنوات اجعل شيئاً للناس تلهيهم عنك

قال: مثلاً؟..

قال: أعطِ كل شخص قصبة صيد وخيط وسنارة، واجعلهم يصيدون في البحر، دعهم يتلهون في الصيد ويتقاتلون على أماكن الصيد وبيع السمك، ودع البحر يغري اليائسين والبائسين وخاصةً المتمردين منهم بالسفر والرحيل..

[28] مْعَنْعَنَا: مريضة.

سليمان العنيد

أنا آسف.. يا أبا شوقي تعبت، أتعبني أخي سليمان هذا العصبي جداً، لا أخفيك، معه حق، لكنه مثل القش اليابس سريع الاشتعال، ابتعد عنا عشرين عاماً، وعاد كما هو، يغتاظ إن رأى باطلاً، ويركل ما يراه أمامه، عجول في ردة الفعل، وكم نصحته..

: يا أخي عد للعشرة قبل أن تتصرف، لكنه لم يفعل.

هل تذكر يا أبا الشوق (سارية السرو) المتسولة البذيئة السكرتيرة، التي كانت السبب في عدم توظيف أخي.. هي نفسها قد ترشحت لبرلمان البلاد، وحين رأى سليمان صورها ولافتات تمجد بها وتملأ شوارع المدينة، جن جنون سليمان وراح يمزق صورها ويدوس بحذائه عليها، وصار يقطع الحبال التي تمسك اللافتات ويرميها، ثم إنه أخد علبة (بويا) التي تخص الأحذية، وبالفرشاة وبيده صار يمحو دعاياتها المكتوبة على الجدران.. لقد تبول على إحدى صورها! أجل، كان في وضع هستيري.. لم يسمع نداء أحد، لكنه ذهب للسجن لفعله هذا، وذهبت سارية السرو نائبة إلى البرلمان.

خرج سليمان بعد أشهر، لملم حوائجه وغادر إلى مدينة الباردة، بقي هناك عشرين عاماً، يعمل سائقاً لسيارة تاكسي.. كان يزورنا كل صيف وحين نسأله عن أوضاعه كان يختصر ويقول:

الحمد لله، مستورة، أولاد الحلال موجودون وأولاد الرخيصة منتشرون .

اشترى بيتاً في الباردة، صار جزءاً منها، عرف اهلها وشوارعها، تفاعل مع أزقتها وطعامها.. مع فلوكلورها وأفراحها، وحمل هموم أهلها وآمالهم..

وأتت أخبار الحرب من مناطق بعيدة، ثم اندلعت في مناطق أكثر قرباً.. بعد أشهر صارت على تخوم الباردة، كانت أصوات المدافع عميقة، ثم علت أكثر واقتربت، تهدمت بيوت، وغزا صوت الرصاص مسامع الأطفال.. لم تعد ثمة أسواق ولا مدارس. حضرت وجوه غريبة، انقطعت المياه والكهرباء، وتعطلت المدارس.. تعطل كل شيء.. أضحى القتال في الحارات القريبة، اختلط الغبار مع الأنين.. مع دموع الذين تهدمت

بيوتهم، امتزج الرعب والقهر مع الجوع والعطش، فرحلوا، اجتمع أهل الحي مساء، حشروا أنفسهم في سياراتهم وشاحناتهم، أخذوا ما وقع تحت أيديهم من أثاث خفيف في تلك الفوضى، الرحيل يعني الفوضى والقلق، يعني الصراخ.. الكل يصرخ بالكل.. للاستعجال والندم على نسيان بعض الأغراض الهامة: كالدواء أو جرة الغاز وبطانيات للنوم.. الفوضى تعم كل شيء.. كل شيء..

مساءً غادر سليمان مع زوجته وبنيه في سيارتهم، ساروا مع القافلة حيث سارت، كان الظلام وغبار الطريق الزراعية يضيفان مشهداً درامياً موجعاً لهذا الرحيل السريع والقسري، وعند منتصف الليل وصلوا إلى الأوستيراد، فانهمرت أمامهم زخات الرصاص التي أوقفتهم، ممنوع عليهم متابعة السفر، بقيت السيارات متوقفة تسمع من ركابها أنيناً وبكاء يشبه العويل، وألفاظاً بذيئة قذرة تتجه من رجل لآخر أو من رجل لامرأة..

عند أول خيوط الفجر، سمعت أبواق سيارات قادمة، وأزيز رصاص يمزق هدوء الفجر، مرقت السيارات السوداء كالسهم. سيارات لا يركبها إلا بعض قادة أو أمراء..

خلفها كانت السيارات الشاحنة تمتلئ بالمسلحين الذين يرشقون الطريق بوابل رصاصهم، وخلفهم سيارات شاحنة لا يعرف أحدٌ ما تحمل..

وجد سليمان نفسه مع سيارات الآخرين يسيرون خلف رتل السيارات الفخمة، ساروا لمدة ساعتين ثم توقفوا، قال أحدهم: لقد أصبحنا على الحدود..

بعد ساعة تحركت السيارات السوداء والسيارات المرافقة لها، وبدأ إطلاق النار على السيارات التي حاولت اللحاق بالقافلة السوداء، لقد حوصروا عند الحدود..

كانت مجموعات من الرجال يتحادثون ويحاولون جمع الأخبار عن مصيرهم، وأين سيتجهون، وكانت المفاجأة، الصدمة التي تلقاها سليمان: كانت القافلة التي اجتازت الحدود مرافقة للنائبة في البرلمان (سارية السرو) .

صار أخي سليمان يضرب رأسه بيديه.. صار يركل بقدميه السيارات التي في طريقه، ضرب زوجته وولديه، صار يسير كالأبله لا يستقر على شيء.. وصار يتمتم: كان يجب أن أمشي عكس السير.. عكس السير.. بنت الرخيصة.

حوصر الجميع، منعوا من العودة، بقوا ثلاثة أيام في العراء، جن جنون أخي حين نادوا عليهم لاستلام الخيام: لا، لا، لن أعيش في خيمة..

عند صباح باكر هرب مع عائلته وعائلة أخرى، خرجوا مشياً لساعات، فرأوا جراراً زراعياً يجر مقطورة، طلبوا إلى صاحبه نقلهم إلى مكان يستطيعون منه متابعة السفر، صعدوا المقطورة وأخذ منهم مالاً كثيراً، أصيب الجميع بالإسهال، بدلوا ثيابهم الملوثة في القاطرة، حتى أوصلهم إلى منزل أمامه سيارة سوزوكي.. رفض صاحب السيارة نقلهم، وطلب مالاً يعجز سليمان عن تأمينه، ثم أخذ إسوارة ذهب من زوجته وأعطاها للسائق لكنه رفضها، ثم اعطاه إسوارة أخرى هي كل ما يملك حتى رضي، وطالت رحلة العودة، يومان كاملان في السيارة من طريق مقطوع بالرصاص أو بالسواتر الترابية، إلى آخر ملأى بالألغام..

وهكذا يا أبا شوقي أتانا سليمان فاقداً لبقية من شعور بالأمن والهدوء، لقد فقد اتزانه، والسبب كما يقول: هم الذين أشعلوا الحرب: **أولاد الرخيصة؟**.

أولاد الرخيصة

ضرب كفاً على كف، أعاد الضرب مع الحوقلة، أعاده كرة أخرى مع التمتمة. جلس يجوس بعينيه، ثم التفت أبو العز إلى أبي شوقي: السلام عليكم..

رد أبو شوقي السلام وأردف: ما بالك.. اهدأ لا تتوتر..

قال أبو العز: أخي سليمان.. أخي يا أبا شوقي مجنون.. قالوا إنه في الحديقة، لكنه ليس هنا.. في السبعين من العمر وما زال عصبياً متوتراً.. ينفعل بجنون وبسرعة، يكسر ما يراه في طريقه ويحطمه، وربما فقد السيطرة على نفسه، ودفع من وجد أمامه، رجلاً كان أو طفلاً أو امرأة.. هذا طبعه اللعين، كان قبل قليل يشتم جاره ويلعنه لأن كيس قمامة وقع أمامه في حديقته الصغيرة، مجنون.. ملأ الحارة صراخاً وهو يقذف جاره بالشتائم متوعداً: سأراك حتما يا.. ابن الرخيصة..

هدأ أبو العز قليلاً وأردف: يا أبا شوقي أخي سليمان سائق تاكسي من خمسين عاماً مع العلم أنه يحمل إجازة جامعية في التجارة، حين كانت شهادته لم يحصل عليها سوى قلة من الشباب، ولأنه عصبي المزاج وردات فعله عنيفة، تخلى نهائياً عن العمل بشهادته، والسبب تلك التي أسماها بنت الرخيصة..

قال لي منذ خمسين عاماً: سلمت السيارة التي أعمل عليها لصاحبها بعد تعب النهار، وعند نهاية شارع ميسلون أوقفتني صبية على غاية في الجمال.. كانت تتسول (من مال الله) ولأني حشري قلت لها: مثلك يدرسون في الجامعة، وإذا لم تدرسي اذهبي وأعملي عملاً شريفاً.. فقالت: معي صف سادس يكفيني..

قلت لها: لدي صاحب تعملين مع الصبايا عنده في قطف البرتقال..

فردت علي بنزق: بعدين أنت شو دخلك، إذا بشتغل أو لا.. فعلاً إنك تافه..

لم أتمالك نفسي قلت لها : آه.. يا بنت الرخيصة..

بعد أشهر على الحادثة أومأت للسيارة فتاة شقراء، وقفت، فتحت باب السيارة الأمامي وجلست على المقعد الأمامي على يميني (في العادة السيدات يجلسن في المقعد الخلفي) سألتها مستغرباً عن وجهتها.. فقالت: روح محل اللي بدك

نظرت إليها قلقاً.. دققت النظر فإذا بي أمام المتسولة، وقد لبست ثياباً تفتقر إلى أي حد من الحشمة والأدب، دهشت للمفارقة.. أطفأت محرك السيارة..

وقلت هازئاً: تعطلت السيارة، انزلي لو سمحتي..

قالت بقرف: هذه ثاني مرة تزعجني شو مفكر شريف؟ يلعن أبوك ابن حرام..

نزلت من السيارة كالمجنون، ومن عصبيتي ضربتها على أنفها، وسال دمها ثم هربت.

دارت الأيام ووددت لو أعمل باختصاصي، سررت كثيراً حين أعلنت شركة كبرى حاجتها لحملة الإجازة الجامعية في التجارة، فتقدمت بأوراقي واثقاً من قبولي لمعدل نجاحي الجيد، ولما جاء يوم نقابل فيه رئيس الشركة دخلت إلى مكتب السكرتيرة وجلست، وهناك رأيتها خلف مكتب فخم تتصدره لوحة أنيقة كتب عليها: سارية السرو، دهشت حين رأيتها، وغلى مرجل الشيطان في صدري وحين رأتني وقفت وقالت: من سمح لك بالجلوس؟ .

وقفت وقلت: أريد أن أرمي ملفي في حاوية الزبالة.. ثم مزقت أوراقي ورميتها على طاولتها وسط صمت الجميع وقلت: لا أريد وظيفة عند أولاد الرخيصة..

رواية شرقية

مفاتيح «أبو العز» (1)

أنا رأيت الأبواب الخشبية القديمة أشكالها وأقفالها. أقفالها من الخشب وحده، وكذلك مفاتيحها.. أنا رأيت أبواب القصب التي تطوى كالأسطوانة، أو تعلق، ورأيت أبواب الريحان منسوجة كالثوب تعلق أيضاً دون أقفال..

رأيت في حياتي أشكالاً لا تعد ولا تحصى من الأقفال، من المفاتيح.

مرة قلت لجدي: قفل باب جارنا العم يونس مختلف، وكذلك قفل باب عبد الرزاق..

قال الجد: اسمع.. لكل باب قفله الخاص به..

حين كنت صغيراً قال جدي مرة: خذ مفتاح البيت وهات لنا (الجمام)..

أيه، هذا الكلام عمره ثمانون عاماً يا. والتفت أبو العز إلى جليسه على ذات المقعد في تلك الحديقة العامة قائلاً:

صار لي شهر أعرفك، وحتى الآن ما عرفت أنت أبو مين؟.

أجاب الجليس: أنا أبو شوقي، أبو شوقي خاروف. أكمل يا أبا العز ما هو الجمام؟

قال أبو العز: ياغشيم، عمرك خمسون عاماً ولا تعرفه! إنه طبق من قصب سنابل القمح يشبه صينية مقعرة.. ثم أردف يقول:

قال جدي: انتبه يا عزيز، لا تكسر أسنان المفتاح، ضعه في المجرى بهدوء..

والمفتاح كان قطعة خشب كالمسطرة الطويلة السميكة، في طرفها خمسة نتوءات خشبية. والمفتاح يدخل في مجرى خشبي مثبت في الباب لتدخل نتوءاته في خشبة تنزلق إلى أمام، فتدخل في حفرة في الجدار ليغلق الباب أو تنزلق إلى الخلف فينفتح الباب.

أنا كسرت أسنان المفتاح.. كسرت نتوءين، لكن جدي الخبير فتح الباب ونجوت من الضرب بـ(عود الخيزران)..أيه.. والله زمان.. أما مفتاح العم يونس كان مختلفاً، إذ يدخل في ثقب ويرتفع إلى الأعلى ثم إلى اليمين ثم يضغط إلى الداخل فتسمع طقطقة ويفتح الباب، ثم صمت قليلاً واستدرك قائلاً:

تذكرت يا أبا شوقي عمي والد زوجتي.. وقتها كان عمري عشرين عاماً، ذهبت إلى داره قصدي أن ألمح ابنته الصبية. البنت التي أحببتها بكل جوارحي، الصبية التي تضفي

هالتها على شاب في العشرين، والتي صارت زوجتي وأم اولادي، أنها مسيرة حياة كاملة يا أبا شوقي.

تابع أبو العز: سلمت عليه، وتظاهرت أني أزوره للاطمئنان عنه، لكنه كان (رحمه الله) ذكياً، أدرك مقصدي.. فقال لي وهو ينظر شَزْرَاً إلى كتاب في يدي:

اسمع يا عزيز: مفتاحك (وأشار إلى رأسي) لا ينطبق على بابنا، مع السلامة، ما إلك عنا نصيب.

قال أبو شوقي: وكيف صارت لك زوجة؟

قال أبو العز: بالمفتاح.. بالمفتاح يا صديقي.. لكل رأس مفتاحه. قم نذهب وغداً نكمل الحكاية..

مفاتيح «أبو العز» (2)

شيئان أحتفظ بهما: ذاكرتي وقليل من الصحة..وهذا القليل بدا يخبو.. يا أبا شوقي لقد تأخرت عليك لأنني تبولت على فراشي، أجل، في الخامسة والثمانين من العمر تتلاشى القدرة على التحكم بالجسد.. أصبحت ضعيفاً، ولا أحد يرأف بالضعيف يا صاحبي.. حتى عندما تكون فتياً أو شاباً أو رجلاً لن يرأف بك أحد، إذ كنت ضعيفاً لا حول لك ولا قوة..

زوجتي التي هي زوجتي نهرتني وصرخت علي: الله لا يكبرك ولا يسعدك.. معقول تتبول على فراشك؟ اسمك عزيز؟. الله لا يعزك..

يمتصون رحيق حياتك وتعبك، وحين تمسي في أرذل العمر تفتش عن جليس لك يؤنسك في حديقة ما.. مثلك يا أبا شوقي..

قال أبو شوقي: هون عليك يا صاحبي.. لعلها قضية عابرة، هل تكمل لي قصة المفتاح؟

قال أبو العز: نعم، فلقد ذهبت إلى جدتي حانقاً غاضباً، رميت الكتاب الذي أحمله على الطاولة، وقلت: هذا المعتوه رفض أن أكون له صهراً..

قالت الجدة: اهدأ يا بني..أهدأ يا بني، ألف بنت تتمناك، ماذا قال لك؟

قلت: نظر إلى كتابي.. وقال: إن مفتاحي لا يناسب بابه.

أمسكت جدتي الكتاب وابتسمت قائلة: ما أجمل صورة الشيخ على غلاف كتابك..

إنه بشبه المرحوم جدك بلحيته البيضاء الكثيفة، وعينيه الجميلتين. ماهو المكتوب به؟ هل قصص الزناتي أو البسوس؟ أم.. قيس وليلى.

قلت: لا يا جدتي.. هذا كتاب الفلسفة.. يحكي عن الناس والوجود..

قالت الجدة : يعني كتاب الحكمة؟ انتبه يا عزيز، لقد قال لي جدك مرة:

كتاب الحكمة يوجع الرأس ويبعدك عن العمل، الناس بدها تعمر بيوت وبدها شغل.. وعلم..

قلت: والفلسفة أيضا علم جميل يا جدتي..

بعد أيام وشهور مضت استطاعت حبيبتي أن تقنع أمها وأباها بالموافقة على زواجنا وهكذا تم الأمر..

قال أبو شوقي: لكن كيف؟ كيف حصل هذا؟

قلت: بالمفتاح.. بالمفتاح يا صاحبي.. والمفتاح كان الكلمة الطيبة.. الكلمة الدافئة الحنونة والشعر.. الشعر الذي أغنيه لها كل يوم (حين يكون والدها خارج البيت) مع حركات تشبه الرقص.. كلمة وشعر وأغنية ترسم الأمل.. ترسخ الحب في النفس..

حين أبثها الشعر وأهمس لها، كانت ترتجف شفتاها، وتحمر وجنتها، وتخبئ وجهها بمنديلها، وكم كان جميلاً ذلك المنديل !!. وفي مرة حين وصفت لها نفسي بأغنية حزينة. شهقت وبكت.. وقالت: لا..لا أحب الحزن..

كانت تتوق للفرح.. وكنت فرحاً لفرحها. وكان هذا مفتاحي الأول..

قال أبو شوقي: هل لك مفتاح آخر؟ احكي لي يا أبا العز.

قلت: بلى.. مفاتيح كثيرة.. إلى اللقاء..سأذهب إلى الحمام، لا أحب مزيداً من التوتر ولا أحب أن تنشر ثيابي أمام الناس.. غدا أحكي لك قصة مفتاح آخر..

مفاتيح «أبو العز» (3) الطاووس

هذا الشرق حزين.. ليس ثمة ارتقاء.. تتنازعه الأهواء من كل جانب. تقتله الرغبات.. تكثر فيه نوازع الغرور وأوهام العظمة، هذي البلاد أثقلتها الخطا العرجاء. هذه البلاد مبهمة كصحرائها الفقيرة للعشب الطري، للندى، للصوت العذب، تضيع من أناسها المفاتيح الصالحة للنفوس، الآن تذكرت المفتاح الذهبي، اسمع يا «أبو الشوق»:

منذ ستين عاماً طلبت للخدمة الالزامية، ذهبت والتحقت بدورة التدريب الملزمة والشاقة.. كان الوقت شتاءً.. تغطي الأرض ألواح الصقيع، والثلج يلون الطبيعة بالأبيض، وحين تحمله الرياح الشرقية تصطك الفرائص وتتجمد العروق أو تكاد.. كان المجندون يصطفون عند السادسة صباحاً، يتفقدهم المسؤول.. ويقدم الصف للضابط الذي يعطي أمر البدء في الدرس الأول.. درس الرياضة.

كان تفقد الصباح كاملاً كل يوم عدا شخصاً واحداً غائباً لم يلتحق، تكرر اسم (محمد سعيد المالكي) كل يوم دون حضور.. وفي صباح ثلجي عنيف كنا نقف عراة الصدور باستعداد كالأصنام.. كانت العقوبة حاضرة بقسوة لمن يتحرك، بدأ الثلج يغطي الأكتاف العارية، والأسنان تصطك، والأرجل تفقد ثباتها، وكأن المدرب ينتقم منا.. أغمي على أحدنا فنقلناه إلى غرفة الحراسة القريبة عند المدخل الرئيسي، وفي هذا الوقت وقفت عند الحارس سيارة مرسيدس سوداء جميلة، طلب سائقها الدخول لمقابلة القائد. معرفاً عن اسمه: محمد سعيد المالكي..

نظرنا إلى بعض.. لزميلنا الذي يجب أن يكون عاري الصدر، والثلج متراكم فوق كتفيه.. ونظرنا إلى السيارة التي هدأت أمام مقر القائد..

انصرفنا ولم نعد نسمع اسم (زميلنا) في التفقد الصباحي ولا المسائي، لكننا رأينا أن سيارة الزميل باتت عند مدير المدرسة بصورة دائمة.. ثم رأيناها مع ابن القائد الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وهو يقود السيارة ويوقفها بجنون، مستهتراً بمن حوله. وكان يلوح دائماً بمفتاحها الذهبي وحلقته الذهبية أيضاً، وقد أسماه ظريفنا الحمصي «الطاووس» كانت خيلاؤه محط استهجان بالسر أو استحسان وتملق البعض أمام القائد..

مضت أشهر وقبل انتهاء الدورة، أخذنا إجازة ووقفنا على الطريق العام بين دمشق وحمص ننتظر حافلة تقلنا، وإذا بها سيارة المرسيدس تزعق فراملها وتدور على الطريق كزوبعة وتنقلب على ظهرها مرات متتالية وقد تحطمت تماماً. وكان زميلنا الحمصي أول من وصل إلى السيارة المنكوبة وحين رجع قال متأثراً:

الفتى بداخلها قد تشوهت ملامحه وغارت نصف جثته ولم يشاهد سوى وجهه الملقى على المقود فوق المفتاح الذهبي وتابع قائلاً: لقد مات الطاووس..

كان المفتاح الخطأ في الأيدي الخاطئة..

لقاؤنا غداً يا أبا شوقي فأنا ذاهب إلى الحمام حتى لا أكون بين الأيدي الخاطئة..

مفاتيح «أبو العز» (4) كلب التنور . .

كنا طلاباً نستعد لامتحانات الشهادة الثانوية.. مرتبكون، مشوشون، ينتابنا الشك في قدرتنا على الحفظ واستذكار المنهاج، ويجمعنا القلق، القلق من الامتحان، ومن نتيجة الامتحان التي هي مفتاح المستقبل.. ولكن يا أبا شوقي ما كان يثيرني إلا ذلك الشاب الذي لا يكترث ولا يقلق على مصير ينتظره بعد الثانوية، بل يقول ويؤكد أن مستقبله معروف ومضمون تماماً، سواء نجح بتفوق أو بعلامات متدنية، فهو دون أدنى شك ضابط في الجيش، وسيرتقي حتى يصير قائداً يتصرف كما يشاء، وبما يشاء.

يا أبا شوقي: ثقة هذا الطالب المطلقة أثارت في داخلي أسئلة زادت قلقي، من أين أتت ثقته؟ ومن ضمن له خط سيره؟ ولماذا مصير غيره مجهول؟ بينما ستكون علاماته الدنيا طريقاً هيناً معبداً؟..

اجتزنا الامتحان وكانت النتائج مذكورة في الصحيفة، ومن الطبيعي أن لا يكون (سهيل) بين الناجحين.. افترقنا جميعنا. ولم ألتقِ بالسيد سهيل لسنوات كثيرة.

دخلت الجامعة لمدة سنتين ولم أكمل، لن أقول لك لماذا، لأن في ذلك غصة واختناق ــ وخرجت.. بقيت سنة لم أعمل بها سوى أيام قليلة كل شهر حين يغيب معلم ما عن صفه لعدة أيام.. ثم ذهبت إلى خدمة العلم، وبقيت ثلاث سنوات، وتسرحت لأبحث عن عمل، لقد أغلقت كل الأبواب في وجهي إلى أن مررت بالشارع العريض

وفيه مقهى معروف، انتبهت إلى داخله ورأيت عدنان صديق الدراسة الذي رآني وأشار إلي بالدخول..

دخلت يا أبا شوقي وأنا أتحسس جيبي إن كان به ثمن فنجاني قهوة لي ولزميلي.. سلمت وجلست، وتجاذبنا الحديث والذكريات والأحوال، عدنان أكمل الجامعة.. سألني عن أحوالي فقلت : عاطل عن العمل.. يائس من كل شيء..

قال: عليك بالنقيب سهيل، زميلنا الذي كان في صفنا، هو مفتاحك للوظيفة..

افترقنا بعد أن أخذت عنوان سهيل، وعند صباح اليوم التالي كنت أمام مكتبه.. دخلت المكتب الواسع ذا الأرائك الزرقاء، والمكتب العريض كان «الزميل» مشغولاً بالهاتف، فأشار إلي بالجلوس، وبعد إغلاقه للهاتف تحدث إلى اثنين وأعطاهما موعداً آخر، ثم التفت إلي بشبه ابتسامة: أهلا أبا العز..شو أخبارك..

قلت: وضعي مثل وضع كلب التنور.. أريد وظيفة..

اتسعت ابتسامة سهيل وأشار يستفهم: شو يعني كلب التنور؟

قال أبو العز: يا أبا شوقي لقد تأخرت عن الحمام غداً أكمل الحكاية..

مفاتيح «أبو العز » (5) كلب التنور

منذ خمسين عاماً كانت حالي حال الكثيرين، الشاردين الذين يكلمون أنفسهم وهم يمشون في الشوارع.. بعضهم يتكلم بصوت مسموع.. قد يقول:لا ما راح أجيب.. طيب خلوا طلباتكم خفيفة.. يعني شو اساوي؟ يا ليت ياليت، مشبك وعوامة، فلفل يا فلفل!، والبعض يدندن بمقطع من أغنية أو شطر من بيت شعري متشائم وحزين، هكذا كنت أكلم نفسي وأنا في الطريق إلى المعلم.

المهم يا أبا شوقي، دخل الزميل سهيل إلى مكتب المعلم وخرج قائلاً: يا عزيز قد تكلفك المسألة راتب عام كامل.. هو لا يستقبل أحداً لكن على كل حال ادخل عليه، وانظر ما يقول..

ثم نادى على حاجبه وصفعه بكفه قائلاً: روح بعدين منتحاسب..

دخلت إلى المعلم، خيل إلي أنني أدخل إلى ديوان هارون الرشيد، أو أحد أبناء الفراعنة، لجمال القاعة ومحتواها الغريب الوثير.. سألني المعلم ذو النجوم اللامعة على كتفيه مبتسماً: قل لي كيف تشبه كلب التنور؟.

لقد أخبره سهيل إذن؟!..تمالكت نفسي وقلت:

يا سيدي هو الكلب يخدم صاحب الدار، يدافع عن الكبار والصغار اذا اعتدى عليهم أحدٌ، يحرس المنزل ليلاً عند غياب أصحابه، وعند الغروب يرافق امرأة الدار إلى التنور وينتظر وعينه على الرغيف الأول الذي يخرج طازجاً شهياً، لعل المرأة ترمي له بقطعة خبز، ثم ينتظر الرغيف الثاني ويتابعه من لحظة خروجه من التنور حتى يصل إلى الطبق ويختفي تحت القماش.. ويبقى يسافر مع حركة الرغيف من فوهة التنور إلى مستقره دون جدوى.. ينتهي الخبز دون الحصول على أي شيء.. مع حركة الرغيف أمل.. وفي مستقره غصة، وعند النهاية حزن وألم..

ينتهي اليوم، ويبقى الكلب حزيناً جائعاً، وينتظر أملاً في اليوم الثاني والأيام التي تليه ولا جديد، وأنا اسمي عزيزٌ.. ولكني لست بعزيزٍ.

قال المعلم ضاحكاً: ليس عندي تنور، ولكنك ستعمل في شركة أرسلك إليها بعد العيد، فقط اجلب لنا خروفين نضحّي بهما فالعيد على الأبواب.

وهكذا يا أبا شوقي اشتريت الخراف «ديناً» له، خروفين وعدت بكتاب أدخلني الوظيفة، ولم أنسَ مفتاحنا السيد سهيل، حيث ضحّى هو بخروف ثالث.

يا أبا شوقي: أقولها بحسرة، لم نخرج طيلة الحياة من محنة الانتظار.. الانتظار الذي لم يأتِ بالفرج ولا مرة واحدة.. كما هو كلب التنور تماماً..

المؤلم.. الجارح.. المقرف في الحياة أن تعيش وترى الكثرة من (المثقفين والسماسرة والمتحزبين والمتزلفين المطبلين الراقصين) أمام الجهلة الذين ينتظرون نتفاً من بقايا موائد.. ينتظرون مثلما ينتظر كلب التنور..

يا أبا شوقي: هل أدلك على مفاتيح كثيرة عرفتها في حياتي؟ اسمع إذن:

إني أسال لماذا مفاتيح السعادة نادرة، ومفاتيح التعاسة كثيرة؟ في الحقيقة يا «أبو الشوق» أحب الحديث عن مفاتيح أبواب الحب والتسامح.. أبواب العلم ومفاتيح الاكتشاف.. مفاتيح أهل البصيرة.. وسأحدثك أيضاً عن مفاتيح السجون الوسخة.. ومفاتيح الحروب الأكثر قذارة التي من تداعياتها جعل أكثر الناس مثل كلب التنور..

من وحي عيد الأم

مشاهدات سمران- المريض رقم ١٩٨٧

كل المحاولات فشلت، لم تُجدِ مساعيه في تحقيق مبتغاه: التسريح من الجيش.. تطوّع منذ خمسة عشر عاماً واعتبر ذلك مهنةً تعطيه راتباً دائماً.. كان رقيباً في البداية ثمّ صار صار مساعداً.. بعد السنوات الأولى أصبح يشعر بالملل، ثمَّ بالغضب والقرف، وخاصة عندما يسمع حكايا الصيد.. الصيد الذي كان مغرماً به.. يشغل كل وقته.. يبيع من صيدهِ.. ويعيش بحريّة، حريّة افتقدها، وحلم بالمسير إلى حيث الوديان والبحيرات والجبال.. إلى حيث الصيد ومتعته، كل طلباته بالتسريح رُدّتْ إليه.. لم يكن ثمّة مبرر.. فصحته جيّدة، وأداؤه جيّد، وسجله نظيف..

بعد يأسٍ وقنوط قرّر الهرب من قيود المعسكرات ونظام القسوة، لكنّ أحد زملائه منعه رأفةً به، لأن الهرب من الجيش يعني سنواتٍ طويلة في السجون..

ساءت حالة سمران.. أضحى عصبياً متوتراً.. يغضب لأتفه سبب.. يحطّم ما يراه.. أوشك أن يطعن بالحربة أحد الضباط، ثمّ أشعل النار في خيمة الطعام.. وهكذا حُوّل إلى مشفى الأمراض العصبيّه والنفسية..

المشهد الأوّل: استفاق سمران من تأثير الإبرة المخدرة القوية التي استقبلوه بها حال دخوله.. وجد نفسه يلبس ثوباً برتقاليّاً على فراش في غرفة باردة، وشخص بجواره يبحلق به ببلاهةٍ، ويمدّ لسانه نحوه، وقرب الباب فراش آخر عليه رجل قام ودار في الغرفة وهو يتبول، وأكمل تبوله على سمران وفراشه..

المشهد الآخر : فُتح باب الغرفة على ساحةٍ كبيرة، خرج سمران الذي أصبح له رقم على ظهره -١٩٨٧- فرأى مشاهد غريبة.. رجلٌ يركض بسرعة وكأنه يقود دراجة نارية وينحني يميناً ويساراً كي لا يدهس أحداً، وثمة رجل يمشي مشية عسكرية ويؤدي التحية: أنا جاهز سيدي الجنرال..

رجلان ضخمان، أدخلا سمران وأعطوه حقنة المهدئ فنام إلى اليوم التالي..

مشهد مختلف: رجلٌ يفتح ذراعيه يحتضن أحدهم ويسأله: وين شفت عليا؟.. ويحتضن الثاني ويسأل نفس السؤال ثم الثالث والرابع ويعود إلى الأول والثاني..

وفي ركنٍ آخر رجلان يرقصان بصورة جميلة ومتناسقة ويدبكان على أغنية: على دلعونا وعلى دلعونا.. وجهك يا زينب جنّن الكونا..

ثمّة آخر رسم بحجرة صغيرة خطاً مستقيماً طويلاً على الأرض، وطلب من المرضى أن يجتازوا الخط سباحةً، فهذا شاطئ البحر، انبطح البعض وجاهدوا محاولين السباحة واجتياز الشاطئ، وينقطع المشهد: حان وقت الإبرة المخدّرة.

مشاهد أخرى في يوم آخر: رجل يتقدم من سمران ويلبس طقماً كحلياً وقميصاً أبيض، وربطة عنق جميلة، تحسبه رجل أعمال ومفكراً عظيماً ..يطوّح بيديه:

ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلي.. بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

ويلوّح مبتعداً: انجلي.. انجلي.. انجلييييي

يغيب الشاعر.. ويأتي الرجل القابع على فراش مجاور لسمران حمل كيساً فارغاً وقال: هل يوجعك رأسك؟..

قال سمران: نعم كثيراً

قال الرجل: أنا لا يوجعني رأسي.. هذا المساء سأقطع رأسكَ وأضعه في الكيس ثمّ أقطع رأسي وأضعه على جسمك بدلاً من رأسك.. وأضع رأسك على جسدي.. لا تخفْ لن أوجعك فلديّ سكين حادةٌ وقويّة..

بهت سمران وبحلق في فضاء الغرفة ولم ينم ليلتها..

المشهد الأخير :

شوهدت امرأة طبيبة تجتاز الساحة وتجلس في نهايتها على كرسي، تفتح كيساً تحمله وتوزع على المرضى كعكاً وحلوى وجوزاً وكراتٍ للّعب وفاكهةً جافّة محلاة بالسكر، والمرضى حولها هادؤون مطمئنون.. تمسح رأس أحدهم.. تربّتُ على كتف آخر.. تحضن شاباً وتمشط شعره.. تبتسم للجميع.. تقضي معهم ساعات طويلة وهم ينادونها: ماما.. ماما. .

يتكرر المشهد أياماً كثيرة، وحضور ماما بين المرضى يعني لهم السعادة، تجيب على أسئلتهم، تنقذ بعضهم من حالة الضياع والفراغ إلى عالم حاضر.. تقص عليهم الحكايا، وتغسل لهم وجوههم، وفي حضرتها يغيض الألم وتتقلص دائرة البلاهة، ويتسلل إلى نفوسهم شيءٌ من ذاكرة جميلة، وعلمٍ عميق يظهر مجدداً في نفوس البعض..

ماما لم تعتمد على الدواء إلا قليلاً، كان شعارها: بالعطف والحنان تحدث المعجزات، أن تكون أماً حاضرة فهذا يعني إنّ الدواء قد حضر، وإن الألم قد زال، لقد ساعدها فريق العمل ورجعوا إلى حياة كل مريض في طفولته ومسيرة حياته وتأكّدوا أنّ غالبية الأمراض النفسية تكمن في غياب أمٍ، وفقد حنانها وعطفها، أو فقدان أختٍ أو زوجة وحبيبة..

«سمران المريض رقم ١٩٨٧ -كان من المئات الذين تمّ شفاؤهم بعلاج -ماما- وعادوا إلى رحب الحياة»

في حضور الأم تحضر الروح وتزهو الحياة بإشراق لذيذ وجميل..

يا أيتها الحاضرة أمام العين، وفي القلب وفي الروح دام في الحياة سرّ وجودك البهي..

يا أيتها الحاضرة في الوجدان والذاكرة، الساكنة في الأوردة ونبضات القلب: كل عام وأنت جمال الكون..

الوظيفة

تماماً.. بتاريخ ١٥-٩-١٩٥٠-ولد الطفل اسماعيل.. وبنفس التاريخ تماماً لكن بعد عشرة أعوام كان الفتى منبطحاً على بطنه يكتب موضوع الإنشاء أولَ وظيفة مدرسيّة في بداية العام الجديد..

لم يكن ثمّة طاولات كي يجلس الأطفال خلفها، ولهذا كانوا جميعاً يكتبون وظائفهم منبطحين، واسماعيل يكتب سطراً أو بضع كلمات ويحك رأسه.. يبحلق في الفراغ مُفكّراً، ثمّ يعود ويكتب بعض الجمل، ويرجع يحكُّ رأسه ويبحلق في الفراغ، وهذا يعني إن الوظيفة تستدعي التفكير والتخيّل..

وفعلاً كانت الوظيفة تتطلب ذلك لأنّ الموضوع هو:

تخيّل طفولة جلالة الملك المعظّم، واكتب موضوعاً عن ذلك..

ظلّ اسماعيل منبطحاً إلى أن أنهى الوظيفة بعد لأْي.. وفي اليوم التالي أعطى الوظيفة لمعلم الفصل، وفي اليوم الذي يليه أرجع المعلّم الأوراق إلى التلاميذ، وكانت المفاجأة!!..

العلامة مكتوبة بالأحمر: صفر

وهناك خطوط حمراء تحت كل أسطر الموضوع، وملاحظات المعلم مكتوبة..

أولاً: إنك وصفت جلالته بأنّه كان طفلاً يتبول في ثيابه مثل أخيك سعيد ويتبرّز ويصاب بالإسهال لأنه يزحف على بطنه، وهذا امتهانٌ لجلالة الملكة واتهامها بأنها غير نظيفة..

وإنه كثير البكاء ويأكل ما يراه على الأرض، ونسيت إن جلالته أمير صغير يعيش في القصر الذي حجارته مرمر، وأرضه رخام مصقول، وتخيلت أنّه أسود اللون مثل ابن أم عزيزة بينما لونه ناصع البياض، وكتبت إن جلالته في طفولته كان يتلعثم في الكلام وإن والده المعظّم كان يجلسه في حضنه كي يقول الطفل لأحد أعيان البلاط: أنت حمار.. ويقول لآخر: قلّد لي نباح الكلب، فيضطرُ المشار إليه بالنباح إكراماً للطفل الأمير..

إنّ خيالك أيها التلميذ سيء، والملك المقدس لا يوصف هكذا فعلامتك صفر!..

حزن الفتى.. وأطرق.. وخبأ ورقته.. وأخذته خيفة لدقائق حتى سمع الأستاذ يقول: لم تكتبوا موضوعاً جيداً وعلى الجميع كتابة الموضوع ثانيةً..

فرح الفتى اسماعيل وفي المساء صار منبطحاً يكتب من جديد:

جلالة الملك كان طفلاً ملكياً جميلاً ناصع البياض، يشع النور من عينيه، علائم الذكاء والفطنة واضحة عليه، رمزٌ مقدّسٌ هو.. سابق لأقرانه بمسافة.. الأول في الرياضة وهو السباح الأول، والرامي الأول، ملك وابن ملك.. له من القصور أجملها ومن الثمرات أطيبها، لا يخطئ في حديث، ولا تصعب عليه قضيّة حفظ العلوم كلها.. ويشهد له بالبنان، حيث فهم وحفظ الدين كله قبل أن يبلغ أشدّه.. حامل للأمانة عن جدارة، وراعٍ للأمّةِ عن اقتدار، اللهم احفظ ملكنا المطهر والمقدس.

الذي حدث إن اسماعيل حصل على علامة الصفر مرة ثانية، وقد كتب المعلم باللون الأحمر: أخطأت إذ جعلته مقدساً فالمقدس هو الله، وأخطأت حين اعتبرته هو الأذكى في البلاد، وإنّه الأقوى بين الفتيان، وإنه الشيخ الأول وأنه الدائم في حكمه، وأخطأت إذ لم تعرف تاريخ أصله ولم تثبت سلالته.. إنّ خيالك ضحل وبعيد عن الواقع والصفر علامتك

حنق والد الفتى.. وذهب حاملاً ورقتي الإجابة وذهب إلى مدير المدرسه قائلاً بغيظ: أيُّ الإجابتين صحيحة؟..

المعلم أصرّ على علامتي الصفر، ولأن الأمر يتعلق بجلالة الملك، فقد خاف المدير وأرسل الورقتين مع كتاب إلى مدير التعليم في المحافظه لإبداء الرأي، ولأن الأمر يصعب البت به، فقد أُرْسِلِ إلى وزير التعليم الذي رأى الأمر خطيراً يتعلق بطفولة جلالته فقد حوّل القضية إلى القضاء، أمّا دار القضاء فلقد أعاد القضية إلى معلّم الصف لاعتماد إحدى الورقتين، والمعلم طلب من مدير المدرسة اعتماد إحداها، لكن المدير أرسلها بدوره إلى المحافظة، التي أرسلتها إلى الوزير، والوزير طلب من القضاء الحل، والقضاء رأى العودة إلى معلم الصف من جديد..

وهكذا منذ ستين عاماً ما زالت القضية تدور من المدرسة إلى المحافظة، وإلى الوزير والقضاء وتعود في دورة إثر دورة ولم يجرؤ أحدٌ أن يحسم أمر وصف جلالته وفي أي مكان أخطأ الفتى..

لقد تقاعد المعلم وكبر الفتى اسماعيل وتزوج ومات الطفل الملك وهاجر المحافظ وتبدل القضاة، وما زالت القضية متداولة مع الوجوه الجديدة، ولم يجرؤ أحدٌ طيّ القضية المرعبة وما زالت تتكدّس أوراقها في أروقة المحكمة (الموقرة)

الفهرس